

موسوعة نداءات

القرآن

نداء التوبة

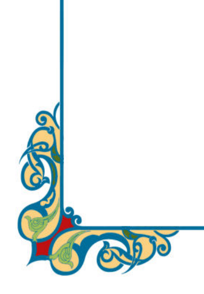
نداء التوبة

محاضرات

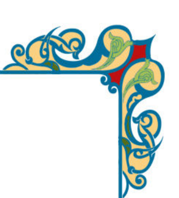
الشيخ محمود نعمة الجياشي

بقلم

السيد رياض الحسني





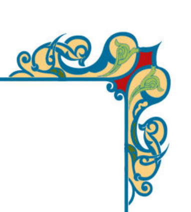


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

التحريم: ٨.





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرّفنا بنداء ((يا أيها الذين آمنوا)) ليقرع أسماع قلوبنا وينير بصائر نفو تنبيهاً لنا من رقدة الغافلين ليخرجنا من ظلمات العالم الأدنى إلى نور العالم الأعلى وأفضل الصلاة وأتم السلام على المنادي برسالته الخاتمة التي دعانا فيها لما يحيينا عبده المنتجب ورسوله المصطفى محمد بن عبد الله وعلى آله الأئمة الهداة الميامين وعترته الطيبين الطاهرين .

وبعد ..

هذا هو الجزء الثاني من الأبحاث القرآنية التي ألقيناها على مجموعة من الإخوة الفضلاء المحصلين في الحوزة العلمية الشريفة أيام الأحد من كل أسبوع، والتي كانت تدور حول موضوع نداءات القرآن، وقد قام سماحة الأخ العزيز السيد الفاضل رياض الحسني دامت توفيقاته بتقرير هذا البحث الذي كان مخصصاً لنداء التوبة وإخراجه بهذه الصورة الماثلة بين يدي القارئ الكريم.

وإذ أبارك له جهوده المميزة شاكراً له سعيه الدؤوب في

متابعة وإنجاز هذا البحث أدعو الله العلي القدير أن يوفقه للاستمرار في خدمة معارف القرآن الكريم وأن يكون جُهده المبارك هذا ذخراً لنا في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

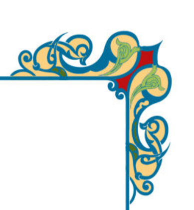
محمود الجياشي

١٣ ذو القعدة ١٤٣٩

النجف الاشرف







المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده كما يستحقه، حمداً كثيراً لا انقطاع له، حمداً به يكرمنا رضاه في الدنيا والآخرة، والصلاة والسلام على سيد الكونين النبي الخاتم والرسول الأعظم نور الله والهادي الأكرم المصطفى محمد وعلى آل بيت النبوة المعصومين سيما بقية الله في أرضه القائم المؤمل عجل الله فرجه الشريف.

أما بعد:

لا شك أن جميع المخلوقين سوى المعصومين عليهم السلام هم عُرضة لصدور الخطأ والمعصية أو الذنب إلا ما رحم ربي!

ومن هنا سوف يكون الإنسان المذنب بحاجة إلى باب يخرجه من ذنبه الذي أدخله في دائرة الظلمانية ليعود به إلى دائرة النور والطهارة الحقيقية. فجاء النداء الإلهي من قبل الحق عز وجل وهو الرحمن الرحيم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً...**﴾[1] ولولا هذا النداء والدعوة الإلهية لظلّ المذنب في

---

(١) التحريم: ٨.

دائرة الهلاك والبُعد عن ساحة الحق عز اسمه.

على ضوء ذلك تنجلي لنا أهمية عنوان هذا البحث وهو نداء التوبة، ولا يخفى أن التوبة وحقيقتها تعدُّ من الحقائق القرآنية التي ينبغي على كل مكلف أن يجعلها دستوراً لحياته اليومية لما تزخر به هذه الدنيا من الملذّات والشهوات التي تجرُّ الإنسان إلى وادي المعاصي والذنوب.

والبحث الذي بين أيدينا يتكفّل بيان حقيقة التوبة التي طرحتها الرسالة الخاتمة وبيان النتائج والآثار المترتبة عليها في الدنيا والآخرة.

ويعود أصل هذا البحث إلى المحاضرات القرآنية التي ألقاها شيخنا الأستاذ محمود الجياشي دامت إفاضاته في موضوع النداءات القرآنية على ثلّة من طلبة البحث الخارج والسطوح في الحوزة العلمية بجوار الحرم الشريف لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام وتحديداً في مدرسة (دار العلم) حيث تناول سماحته البحث في موضوع التوبة من خلال سبعة عشر محاضرة كوّنت بمجموعها مباحث هذا الكتاب بعد تقريرها إلى ثلاثة عشر مبحثاً مثّلت (نداء التوبة).

ونظراً لأهمية هذه المباحث ودقّة المطالب التي تضمنتها

وتعميماً للفائدة فقد قمنا بتقريرها بهذه الصورة الماثلة بين يدي القارئ الكريم، ولكي يكون الكتاب تام الفائدة فقد أضيفت إليها بعض الأبحاث والشواهد العلمية التي أخذناها من الشيخ الأستاذ خارج الدرس، إضافة إلى صياغة عبارات البحث وحذف المكررات بما يتلاءم مع الأبحاث المكتوبة.

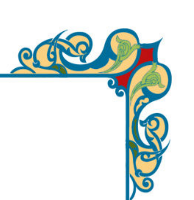
ولا يسعني في هذه المقدمة إلا أن أتقدم بالشكر والدعاء لشيخنا الأستاذ دام توفيقه وأن يمنّ الله عليه بالصحة والعافية لما بذله من جهد كبير في إنجاز هذه الأبحاث وأن ينفعنا الله بعلمه وتوجيهاته التي استمرت حتى آخر كلمة من البحث .

وختاماً أقول: اللهم اغفر لي ولوالديَّ ولجميع المؤمنين والمؤمنات.. اللهم تفضل علينا برضاك وتوبتك الدائمة ولا تتركنا في الغافلين.. إنك سميع مجيب.

مقرر البحث العبد الفقير

السيد رياض سامي النزاري الحسني

١٢ ذو القعدة ١٤٣٩



مناجاة التائبين

بسم الله الرحمن الرحيم

- إلهي أَلْبَسَتْنِي الْخَطايا ثَوْبَ مَذَلَّتِي، وَجَلَّلَنِي التَّباعُدُ مِنْكَ لِباسَ مَسْكَنَتِي، وَأَماتَ قَلْبِي عَظِيمُ جِنايَتِي، فَأَحْيِه بِتَوْبَة مِنْكَ يا أَمَلِي وَبُغْيَتِي، وَيا سُؤْلِي وَمُنْيَتِي، فَوَ عِزَّتِكَ ما أَجِدُ لِذُنُوبِي سِواكَ غافِراً، وَلا أَرى لِكَسْرِي غَيْرَكَ جابِراً، وَقَدْ خَضَعْتُ بِالإنابَةِ إِلَيْكَ وَعَنَوْتُ بِالاسْتِكانَةِ لَدَيْكَ، فَإنْ طَرَدْتَنِي مِنْ بابِكَ فَبِمَنْ أَلُوذُ؟ وَإِنْ رَدَدْتَنِي عَنْ جَنابِكَ فَبِمَنْ أَعُوذُ؟ فَوا أَسَفاهُ مِنْ خَجْلَتِي وَافْتِضَاحِي، وَوا لَهْفاهُ مِنْ سُوءِ عَمَلِي وَاجْتِراحِي.

- أَسْأَلُكَ يا غافِرَ الذَّنْبِ الْكَبِيرِ، وَيا جابِرَ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ، أَنْ تَهَبَ لِي مُوبِقاتِ الْجَرائِرِ، وَتَسْتُرَ عَلَيَّ فاضِحاتِ السَّرائِرِ، وَلا تُخْلِنِي فِي مَشْهَدِ الْقِيامَةِ مِنْ بَرْدِ عَفْوِكَ وَغَفْرِكَ، وَلا تُعْرِنِي مِنْ جَمِيلِ صَفْحِكَ وَسَتْرِكَ.

- إلهي ظَلِّلْ عَلَى ذُنُوبِي غَمامَ رَحْمَتِكَ، وَأَرْسِلْ عَلى عُيُوبِي سَحابَ رَأْفَتِكَ.

- إلهي هَلْ يَرْجِعُ الْعَبْدُ الابِقُ إلاَّ إِلَى مَوْلاهُ أَمْ هَلْ يُجِيرُهُ مِنْ



سَخَطِهِ أَحَدٌ سِواهُ؟

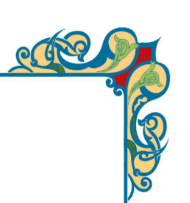
- إلهِي إنْ كانَ النَّدَمُ عَلَى الذَّنْب تَوْبَةً، فَإِنِّي وَعِزَّتِكَ مِنَ النَّادِمِينَ، وَإنْ كَانَ الاسْتِغْفارُ مِنَ الْخَطيئَةِ حِطَّةً، فَإِنِّي لَكَ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ، لَكَ الْعُتْبى حَتّى تَرْضى.

- إلهِي بِقُدْرَتِكَ عَلَيَّ تُبْ عَلَيَّ، وَبِحِلْمِكَ عَنِّي اعْفُ عَنِّي، وَبِعِلْمِكَ بِي ارْفَقْ بِي.

- إلهِي أَنْتَ الَّذي فَتَحْتَ لِعِبادِكَ بَاباً إلَى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ، فَقُلْتَ: (تُوبُوا إلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحَاً)، فَما عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ الْبابِ بَعْدَ فَتْحِهِ.

- إلهِي إنْ كانَ قَبُحَ الذَّنْبُ مِنْ عَبْدِكَ فَلْيَحْسُنِ الْعَفْوُ مِنْ عِنْدِكَ.

- إلهِي ما أَنَا بِأَوَّلِ مَنْ عَصاكَ، فَتُبْتَ عَلَيْهِ، وَتَعَرَّضَ بِمَعْرُوفِكَ، فَجُدْتَ عَلَيْهِ، يا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّ، يا كَاشِفَ الضُّرِّ، يا عَظِيمَ الْبِرِّ، يا عَليماً بِما فِي السِّرِّ، يا جَمِيلَ السِّتْرِ اسْتَشْفَعْتُ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ إلَيْكَ، وَتَوَسَّلْتُ بِجَنابِكَ وَتَرَحُّمِكَ لَدَيْكَ، فَاسْتَجِبْ دُعائِي، وَلا تُخَيِّبْ فِيكَ رَجائِي وَتَقَبَّلْ تَوْبَتِي وَكَفِّرْ خَطيئَتِي، بِمَنِّكَ وَرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.



المبحث الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على خير خلقه محمد وآلـه الطيبين الطاهرين

● نداء التوبة

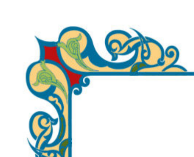
نشرع في هذه الأبحاث - بعونه وتوفيقه تعـالى- في بحـث نداء آخر من النـداءات الإلهيـة في القـرآن، وقـد تقـدم في الـسنة الماضية البحث في النداء الأول وهو (نداء العبادة) المـستفاد مـن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِيـنَ مِـنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[1] .. وفي هـذه الـسنة سـيكون بحثنـا في نداء التوبة المستفاد من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا تُوبُـوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً**﴾[2] ومن الواضح أن المحور الرئيسي الذي سوف تدور عليه الأبحاث هو موضوع (التوبة).

---

(١) البقرة: ٢١.

(٢) التحريم:٨.





● **التوبة في اللغة**

على ضوء ذلك لا بد أن نحمل فكرة وافية عن التوبة من الناحية اللغوية والعقائدية باعتبارها الموضوع الذي تدور عليه تفاصيل هذا البحث.

التوبة في اللغة تعني: الرجوع، تاب أي: رجع، وكذلك التوب بمعنى الرجوع، وعندما ينادينا الله عز وجل بقوله: توبوا.. أي ارجعوا وعودوا إلى الله سبحانه، والرجوع إلى الله من المواضيع القرآنية الموسعة التي تشكل جزءاً جوهرياً في حقيقة موضوع التوبة. وهناك معنيان أساسيان للرجوع لا بد من الإشارة إليهما بقدر ارتباطهما بموضع البحث.

● **الرجوع إلى الله في القرآن**

المعنى الأول: ما نسميه الرجوع العام إلى الله سبحانه وتعالى، وهو المستفاد من قوله تعالى: ﴿**إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[1] وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ**﴾[2] وهذا الرجوع هو رجوع اضطراري لا يمكن أن يستثنى منه شيء فالكل راجع له عز وجل في مسيرة الوجود،

---

(١) البقرة: ١٥٦.

(٢) المؤمنون: ١١٥.

وقد يعبر القرآن عن ذلك بـ(لقاء الله) كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾[١] . ومن المعلوم لغوياً أن (إلى) تفيد الغاية والنهاية، وهذا يعني أن هناك ابتداء تكون نهايته إلى الله عز وجل، ولقائه سبحانه. وليس بالضرورة أن يكون هذا اللقاء في نقطة واحدة يصلها الجميع بل إن نهاية هذا اللقاء إما أن تكون عند نقطة (غفور رحيم) أو عند نقطة (سريع الحساب) أو (شديد ذو انتقام) والإنسان مخير في اختيار الطريق الذي يوصله إلى أحد هذين اللقاءين.

وقد أكد القرآن حقيقة هذا الرجوع واللقاء بالله سبحانه وتعالى في كثير من آياته. قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣] .

وقال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[٤] .

---

(١) الانشقاق: ٦.

(٢) الكهف: ١١٠.

(٣) العنكبوت: ٥.

(٤) فصلت: ٥٤.

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[١].

إذن، فنحن مدعوون جميعاً للقاء الله تبارك وتعالى ولكن علينا أن نختار النقطة التي يتحقق فيها هذا اللقاء والرجوع الذي لا يمكن أن يشذ منه أحد. وحسب تعبير القرآن: لا بد أن نحدد النقطة التي تنتهي إليها مسيرة (الكدح)، يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه.

المعنى الثاني: ما نسميه الرجوع الخاص، أو الرجوع الاختياري وهو الرجوع المستفاد من آيات التوبة كقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله..) أي ارجعوا إلى الله، فهو سبحانه يطلب الرجوع من العبد، ولا بد أن يكون الإنسان مختاراً في هذه الحالة، وهو يختلف عن الرجوع العام الاضطراري المستفاد من قوله تعالى: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

ويستند الرجوع الاختياري إلى الله سبحانه إلى أن نشأة الدنيا.. وعالم الدنيا هو عالم بعيد عن مصدر النور والكمال

(١) الزمر: ٧١.

الحقيقي من الناحية الوجودية.. وهو عالم المادة والشهوات والملذات والظلمانية.. وفيه تقع الذنوب والمعاصي والخطايا.. ولذلك صارت الدنيا نشأة الاختبار والامتحان والابتلاء.. فكأن الإنسان عندما يخلق ويصل إلى هذه النشأة الدنيا يبتعد عن الله سبحانه بسبب هذه الأمور التي تحكم عالم الدنيا.. وعليه فالله سبحانه وتعالى يناديه بالعودة والرجوع إليه فيقول: (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله..) أي ارجعوا وعودوا إلى ربكم.. والإنسان بالرغم من وجوده في هذا العالم لكنه قادر على أن يختار طريق الخير والصلاح والطاعة.. ويكون وجوده (مع الله) وقريباً من الله.. باعتبار أنه ما زال مرتبطاً بعالم الطهارة والكمال من خلال أعماله الصالحة، ويكون معتصماً بالنور الإلهي الذي ذكرناه في بحث العبادة فلا ينفعل بملاقاة النجاسة الدنيوية من الشهوات والذنوب والملذات الفانية.. وبخلافه الإنسان الذي يتبع الشهوات ويرتكب الذنوب ويطيع الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.. فإنه سوف يبتعد عن الله سبحانه.. ويسير في طريق وكأن ظهره إلى الله سبحانه ووجهه نحو الشهوات والمعاصي والعياذ بالله.. وكلما ازداد في سرعة المشي ابتعد عن الله أكثر.. كما ورد في الحديث عن المعصوم عليه السلام: (السائر على غير الطريق لا

تزيده سرعة المشي إلا بعداً).. والمقصود طريق الحق والصراط المستقيم.. فكلما غرق الإنسان بالشهوات يكون مدبراً وبعيداً عن ساحة الحق عز اسمه فيتوجه له النداء بالرجوع والعودة: توبوا إلى الله.. ولا شك أن أكثر الناس هكذا.. فيتوجه نداء التوبة إليهم جميعاً. وهذا المعنى من الرجوع الاختياري هو المقصود في بحث التوبة.

● التوبة من الشرك والكفر والتوبة من المعاصي

ولسائل أن يسأل أن نداء التوبة موجه في الآية إلى الذين آمنوا.. فهل يختص ذلك بالمؤمنين أم أنه يشمل الكافرين للتوبة من كفرهم؟

والجواب: أننا نتكلم عن التوبة هنا بشكلها العام، وهي تارة تكون توبة من الشرك والكفر باعتبار أن الإنسان الكافر سائر على غير الطريق فتكون توبته ورجوعه إلى الله سبحانه وتعالى بالإيمان والتوحيد، وتارة أخرى تكون توبة من المعاصي والذنوب باعتبار أن الإنسان المؤمن قد تصدر منه المعصية والذنب وتكون توبته بالرجوع إلى سبيل الطاعة وترك المعاصي والذنوب، وبحث التوبة يشمل كلا القسمين.



● **التوبة من مختصات القرآن الكريم**

تجدر الإشارة في مقدمة هذا البحث إلى أن التوبة بهذا الشكل الذي نبحثه على ضوء القرآن الكريم يعتبر من مختصات الرسالة الخاتمة.. نعم لا شك أن التوبة مذكورة في الرسالات السماوية السابقة، لكننا نعني أن التوبة بهذا الطرح القرآني وهذه التفاصيل هو مما امتازت به الرسالة السماوية الخاتمة، إذ يوجد إشارات للتوبة في التوراة والإنجيل.. كما ينقل ذلك القرآن في قصة موسى عليه السلام مع اليهود، حيث يقول: (فتوبوا إلى بارئكم..).

وأما الديانة المسيحية فالتوبة عندهم مرّت بمرحلتين تقريباً:

● **التوبة في الديانة المسيحية**

المرحلة الأولى: ما يستفاد من أصول الديانة المسيحية الأولى وهي أن الإنسان المذنب لا تقبل توبته عند الله سبحانه، وقد رتبوا على هذا المطلب (عدم قبول التوبة) فكرة الفداء والصلب للنبي عيسى عليه السلام، ومن المعلوم أن فكرة الفداء والصلب تعتبر جزءاً جوهرياً من أصول الديانة المسيحية وتستند فكرة الصلب والفداء عندهم إلى أن آدم عليه السلام أبا البشرية عندما عصى الله سبحانه وأكل من الشجرة المنهي عنها فسوف لا تقبل

التوبة منه ولا من ذريته!! لأنه ارتكب الخطيئة وابتعد عن الله سبحانه وتعالى، وحيث أن ذريته سوف تخرج منه فتكون هي الأخرى مشمولة بعدم الرضا الإلهي والابتعاد عنه سبحانه.. بعبارة أخرى أن آدم عليه السلام تلوث بالمعصية فكذلك ذريته سوف تتأثر بالمعصية ولا يقبل منهم توبة... وهكذا الحال إلى أن وصلت الإنسانية إلى زمن عيسى عليه السلام.. فخلق الله هذا الخلق الذي يقولون عليه إنه (ابن الله) حسب العقيدة المسيحية.. وهو سلام الله عليه ابن الإنسان أيضاً لأن أمه مريم عليها السلام إنسانة وهي قديسة طاهرة مطهرة، لكنهم يقولون هو ابن الله باعتبار لا أب له من بني الإنسان فيكون هذا المخلوق طاهراً مطهراً.

وحسب معطيات العقيدة المسيحية أن الله سبحانه جاء بهذا المخلوق الطاهر إلى هذا العالم فاختلط بالناس فأكل معهم.. ومشي معهم.. وعاش معهم.. وتكلم معهم.. إلى أن وصلت الحالة أن تتفق هذه البشرية الخاطئة على قتله وصلبه! وبهذا القتل والصلب سوف يطهر الآخرين من الذنوب والمعاصي ويغفر الله سبحانه للباقين ويكون عيسى عليه السلام فداءً لذلك.. وكأن الله سبحانه لا يقبل التوبة من الناس إلا أن يحصل فداء وقربان لذلك.. ففكرة الفداء تقوم على أن التوبة بدون فداء غير مقبولة. هذا ما يمكن أن

يستفاد من أساسات العقيدة المسيحية في مراحلها الأولى.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي اختلف فيها تعامل الكنيسة مع المذنبين والعاصين، ووجدنا فيها (شباك الغفران) أي غفران الذنوب، أي يأتي المذنب إلى الكنيسة ويعترف بمعصيته أمام رجل الدين ويعطى في مقابل ذلك (صك غفران) وبعد ذلك وصل الحال إلى المتاجرة بصكوك الغفران وقبول التوبة إلى نقض فلسفة التوبة والرجوع إلى الله سبحانه كما هو معلوم لمن راجع تاريخ الكنيسة في هذا الموضوع.

إذ يظهر لنا العهد الجديد أن الله يمنح غفران الخطايا عن طريق (العمادة) أولاً، ولكن يسوع بطريقة أوسع منح الإثني عشر - الحواريين- والجماعة الكنسية السلطان لغفران الخطايا، واستبعاد الخاطئين غير التائبين من الجماعة.

وفي القرن الثاني الميلادي، تدعو تعاليم الرسل المسيحيين إلى الإقرار بخطاياهم قبل الصلاة والاحتفال بالقداس الإلهي، والمقصود هنا هفوات الحياة اليومية، إذ كان على الشخص المعمَّد ألا يعود ثانية إلى الخطأ الجسيم، لكن بالرغم من ذلك ففي القرن الثاني الميلادي كان يسمح بشكل عام إلى إمكانية المصالحة مع الله مرة واحدة لمن ارتكب أخطاء جسيمة (كالجحود والقتل والزنا)

من خلال التماثل مع العميد كما يعبرون في الكنيسة.

وهناك فكرة أخرى في العقيدة المسيحية تسمى (سرّ التوبة) وهو لا يمنح في الحياة إلا مرة واحدة حسب عقيدتهم، إذ يقولون أن هناك مسيحيين قليلو الورع، فهم أكثر وقوعاً في الخطايا الثقيلة، وبما أن سر التوبة لا يمنح للشخص إلا مرة واحدة في الحياة، فكان الخاطئون والمذنبون يؤجلونه إلى أطول وقت ممكن، وغالباً إلى دنوّ الموت!!!

بناءً على ذلك كان الاقتراب من سر التوبة الرسمي أو القانوني يعتبر ممارسة استثنائية عندهم، لا يخضع لها إلا الذين ارتكبوا خطيئة أو ذنباً ثقيلاً وفاضحاً يبعدهم عن الاقتراب من سرّ القربان حسب تعبيرهم.

وكان الذي ارتكب خطيئة ثقيلة يعترف بها مبدئياً للأسقف بشكل سري، وكان في إمكان الأسقف أن يطلب من المذنبين والخاطئين أن يتقدموا من سرّ التوبة، وكان هذا السرّ يجري على مراحل، وعند دخول الخاطئين في مسيرة التوبة يضع الأسقف يديه عليهم ويسلمهم المسح وهو لباس مصنوع من شعر المعز، وكانوا يؤلفون عند ذلك مجموعة خاصة في الكنيسة، وفي أثناء الصوم الكبير كان الكهنة يضعون أيديهم مرة أخرى

على التائبين، وفي نهاية زمن يختلف طوله باختلاف ثقل الخطيئة وقد يدوم عدة سنوات، يصالح الأسقف التائبين بوضع اليدين.

وكانت الشروط المفروضة على التائب شاقة جداً، فكان عليه أن يرتدي ثياب الفقراء ويهمل الاهتمام بالنظافة!! ويصوم ويمتنع عن أكل اللحم ويتصدق، وعليه أن يمتنع عن العلاقات الزوجية، وإن رفض شخص احترام هذه الشروط يعدّونه جاحداً لا يستطيع التماس المصالحة.

تبعاً لذلك انقلبت هذه القسوة في ممارسة التوبة على المؤسسة الدينية عندهم، فقد كان الموعوظون يؤجلون اعتمادهم لتغفر خطاياهم يوماً ما! من دون الخضوع لأي شرط! أما الخاطئون المعمدون فإنهم كانوا يؤجلون توبتهم إلى أقصى حدّ! لأنهم لا يستطيعون التخلّي عن إيمانهم وعن حياتهم الزوجية في الوقت نفسه، وهذا ما أدى إلى أن ترفض التوبة عند الأشخاص الذين ما زالوا حديثي السّن! فأصبحت لا تعني شيئاً إلا للشيوخ والمشرفين على الموت!!

وفي القرن الخامس الميلادي أخذ الخاطئون يهملون التوبة لعدم قدرتهم على قبول شروطها[1].

(١) ينظر موسوعة الأديان في العالم، المسيحية، ص٥٦-٥٨.

وعليه فإن موضوع التوبة وإن كان مطروحاً في الديانات السابقة لكنه لم يكن بالشكل والتفاصيل والآثار والنتائج التي يطرحها القرآن الكريم كما سيمر علينا من خلال هذا البحث إن شاء الله تعالى.

● لولا باب التوبة لظل العاصي في الهلاك

من الأركان التي يقوم عليها بحث التوبة هو أن الإنسان المذنب سيبقى في الهلاك والعذاب الأبدي لو لا فتح باب التوبة، لأن الذنب والمعصية من المبعدّات التكوينية عن ساحة الحق عز اسمه.. إذ أن الإنسان عند المعصية يبتعد تكويناً عن مصدر الكمال والنور.. وكلما كرر الذنب والمعصية يكون قد ابتعد أكثر.. ولو حاسبنا هذا الإنسان من الناحية التكوينية لكان مصيره الهلاك الأبدي لأنه لا يوجد أي منفذ له للرجوع إلى الغني المطلق والكمال المطلق وهو على نجاسة الذنوب المتحققة في قلبه ووجوده.. وفي هذه النقطة فتح الله سبحانه باب التوبة، وبذلك يكون باب التوبة من أوسع أبواب رحمة الله سبحانه.. وكما يقول أهل المعرفة أن التوبة هي أول منازل السائرين نحو الحق سبحانه في طريق الكمال والقرب الإلهي، وهي أول المنازل باعتبار أن الإنسان إذا أراد السير نحو الله والتقرب منه عز وجل

فلا بد عليه أولاً أن يرجع إلى الله.. إذ كيف نتصور حصول التقرب من الله والحال أن الإنسان مدْبر عن الله ومتوجه نحو الذنب والمعصية؟! لأن الإنسان العاصي يكون وجهه نحو الذنوب والشهوات فلا بد عليه أولاً أن يخطو الخطوة العكسية ويرجع إلى سبيل الله لكي تستمر مسيرة القرب وهذا لا يتحقق إلا بالتوبة فتكون هي أول منازل السائرين ومفتاح الوصول إلى المقامات العليا في الكمال والقرب.

● التوبة باب من أبواب الرحمة الإلهية

قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

على ضوء هذه الآية الكريمة نفهم أن التوبة باب واسع من أبواب الرحمة الإلهية إذ نجدها تؤكد أن الله سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وعندما نسأل ما هي هذه الرحمة التي كتبها على نفسه؟ يأتينا الجواب في الآية نفسها: من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب وأصلح.. والنتيجة أن الله غفور رحيم .. وعليه فقبول التوبة والمغفرة يعودان إلى الرحمة المكتوبة من قبله تعالى، ولو أردنا صياغة ذلك من خلال الأسماء الإلهية سنجد أن هناك

(١) الأنعام: ٥٤.

ثلاثة أسماء هي: الرحمن، التواب، الغفور، وحسب الآية الكريمة فإن التواب والغفور اسمان متفرعان من الاسم الرحمن.. أي كتب على نفسه الرحمة ومقتضى ذلك أن يكون تواباً غفوراً رحيماً.. فلو لا وجود الاسم الرحمن لحاسبنا الله بعدله مثلاً ولم يكن هناك توبة أو مغفرة! فالمغفرة وقبول التوبة هما نتيجة للرحمة المكتوبة... ومعنى كتبها على نفسه أن قبول التوبة إذا توفرت شروطها سيكون حتمياً وواجباً، لكنه ليس وجوباً من العقل يفرض على الله سبحانه.. كلا.. بل يعبر عنه أنه وجوب من الله وليس على الله حسب ما ذكره المحققون في الأبحاث الكلامية والفلسفية.

وقد تعرض القرآن الكريم إلى موضوع التوبة وفروعها ومشتقاتها في أكثر من ثمانين آية بمعناها العام سواء كانت توبة من الشرك والكفر أم توبة من الذنوب والمعاصي، وسوف نتعرض لأقسام التوبة وحالاتها المختلفة ونتائجها المترتبة عليها في اللاحق من فقرات هذا البحث.

- **تحقيق في معنى الرجوع إلى الله**

وحيث كان معنى التوبة في اللغة هو الرجوع وقد ذكرنا معنى الرجوع إلى الله في مستهل هذا البحث لكننا نزيد ذلك بهذا البيان:

إن وجود الإنسان في حالة الـذنب والمعـصية هـو وجـود مـشوب مخلـوط، أي يوجـد في الإنـسان شيء غـير إلهـي.. غـير نوراني.. وهي قذارة الـذنب وظلمانيـة المعـصية في نفـسه وقلبـه وروحه.. وعندما يريد الإنسان أن يرجع إلى الله سـبحانه ويلبـي نداء التوبة والرجوع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُـوا إِلَى اللهِ﴾ فـلا بـد ولكي يتحقق هذا الرجوع أن يحصل نوع من التنظيف والتطهـير من تلك الـشوائب والقـذارات.. وإلا فمـع بقـاء جـزء منهـا في وجود الإنسان فسوف لا يكون الإنسان راجعـاً إلى الله حينئـذٍ.. أي بعد لم يتب حقيقـة.. لم يرجـع كلـه إلى الله.. جـزء مـن وجـوده متعلق بالذنب! وهذا يعاكس رجوعه إلى الله، لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيـب.. لـذلك أكـدت الآيـة الكريمـة أن التوبـة والرجـوع المطلوب إلى الله لا بد أن تكون (توبة نـصوحاً) أي رجوعـاً صـافياً خالصاً لا يبقى معه الإنسان متمسكاً بشيء ينافي جهة الله عز وجل.

وبناءً على معنـى الرجـوع الكـلي إلى الله في حقيقـة التوبـة سوف تنقسم التوبة إلى أقسام متعددة بحـسب مكونـات حقيقـة الإنسان وهي: البدن، والـنفس، والقلـب، والـروح، والعقـل.. فحقيقة الإنسان بجميع مكوناتها لا بد أن تتـوب وترجـع إلى الله سبحانه، فيتحصل عندنا مجموعة من أنواع التوبة، وهي كما يلي:



● **توبة البدن والجوارح**

بمعنى أن جميع أجزاء البدن ترجع تتوب فهناك توبة العين، وتوبة الأذن، وتوبة اللسان، وتوبة الأرجل، وتوبة الفم.. وهكذا.. أي تتوب العين من ارتكاب نظر المعصية.. وتتوب الأذن من الاستماع إلى المعصية.. وتتوب اليد من العمل بالمعصية.. وأن تمتنع الأرجل من السير إلى المعصية.. وأن يتوب الفم من أكل الحرام.. أو التلذذ بالحرام.. وكذلك يتوب اللسان من التكلم بالمعصية.. فيكون كل وجود الإنسان سائراً في الحلال.. وتكون كل جوارحه طاهرة.. راجعة رجوعاً مخلصاً لله سبحانه وتعالى.. وحسب تعبير القرآن: (كلوا من طيبات ما رزقناكم...) فيكون البدن طيباً.. خالي من الخبائث.. انظروا إلى طيبات ما رزقناكم.. اعملوا بطيبات ما رزقناكم... تكلموا بطيبات ما رزقناكم.. امشوا في طيبات ما رزقناكم.. اسمعوا من طيبات ما رزقناكم.. وهكذا... فتتحقق التوبة النصوح من البدن والجوارح.

● **توبة القلب**

وتتحقق بتطهير القلب من جميع الهواجس أو المشاعر والأمراض التي تبعده عن الله سبحانه.. وتخرجه من حالة

القلب السليم.. والقلب المطمئن بذكر الله تعالى... وعندما يتحقق ذلك يكون القلب تائباً راجعاً إلى الله.. طيباً مطمئناً سليماً.. عامراً بذكر الله.. بصيراً منوراً.. بعيداً عن العمى الذي يتكلم عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

● توبة العقل

أي أن العقل له توبته ورجوعه الخاص إلى الله تعالى، ويتحقق ذلك بتطهير العقل من جميع الإدراكات والأفكار المنحرفة عن الفطرة السليمة والمضرة بكمال الإنسان العاقل التي تبعده عن سبيل السعادة الحقيقية وتوصله إلى ظلمات الهلاك والضلال وبذلك يعود العقل إلى خالقه وتكون توبته عقلية نصوحاً.

● توبة الروح وتوبة النفس

وهي توبة خاصة أيضاً بمعنى أن تتوجه النفس والروح إلى مصدر الكمال والنور الحقيقي المطلق.. وتترك أودية الظلمات والشهوات واللذات الفانية.. فتكون راجعة رجوعاً حقيقياً مرضياً.. وينطبق عليها قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

إذن لا بد أن يكون كل كيان الإنسان ووجوده بجميع

مستوياته سائراً في صراط التوبة.. وكل توبة من هذه التوبات لها شروطها الخاصة وآثارها الخاصة.. فهناك شروط لتوبة الجوارح.. وشروط توبة القلب.. وهكذا..

فعندما ينادينا الله سبحانه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ لا بد أن نفهم أن هذا النداء الإلهي موجه لجميع جهات وجودنا الروحية والبدنية والقلبية والنفسية والعقلية وغيرها.. وهذا هو معنى العودة والرجوع النصوح إلى الباري عز وجل.

• التوبة في الاصطلاح التفسيري والعقائدي

اختلف علماء الكلام والمفسرون في بيان حقيقة التوبة وإعطاء تعريف محدد لها من الناحية الاصطلاحية.. بالرغم من أن جميع التعريفات التي ذكروها تدور حول الرجوع المستفاد من المعنى اللغوي وإن اختلفت بعض لوازمه وآثاره.

فذكر بعضهم أن التوبة هي نفس الندم.. ويمكن استفادة هذا المعنى من الروايات التي قالت أن الندم توبة.. أو كفى بالندم توبة.. فعندما يندم الإنسان على صدور المعصية منه مع العزم على أن لا يعود إليها مع قدرته عليها سوف يكون تائباً وينطبق عليه تعريف التوبة.

وعرفها بعضهم بأنها الرجوع إلى الله تعالى بحلّ عقدة الإصرار من القلب، أي الإصرار على الذنب.. ثم القيام بكل حقوق الربّ.. وهذا يعني أن التائب راجع إلى الله.. وهو قريب من المعنى اللغوي مع بعض القيود الأخرى.

وعرفها السيد السبزواري قدس سره في تفسير المواهب بأن التوبة: هي الاعتذار المقرون بالاعتراف المستلزم للرجوع إلى الله سبحانه، أي أن التوبة في حقيقتها هي ذلك الاعتذار عن الذنب المقترن بالاعتراف بالذنب.. ويكون لازمها أن يتحقق رجوع التائب إلى الله عز وجل.

لكنه قدس سره يرجع في آخر البحث ويقول أن التوبة هي الندم كما صرحت بذلك الروايات المعتبرة[١].

أما السيد الطباطبائي قدس سره فيقول إن التوبة هي: (رجوع من العبد إلى الله سبحانه وتعالى بالندامة والانصراف عن الإعراض عن العبودية)[٢].

ويقول السيد عبد الله شبر قدس سره في حقيقة التوبة:

(التوبة عبارة عن معنى ينتظم في ثلاثة أمور مترتبة:

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج٢، ص٢٦٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص٢٤٤.



أولها العلم، وثانيها الحال، وثالثها الفعل.. والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث.

والمراد بالعلم: معرفة ضرر الذنوب وأنها السمومات المهلكة للدين، المفوتة لحياة الأبد، الحاجبة للعبد عن محبوبه من السعادة الأبدية.

ثم يحصل من هذا العلم حال، وهو أن يثور من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، وينبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بحال بترك الذنب الذي كان له ملابساً، وبالاستقبال بالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر..

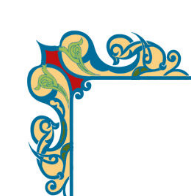
والعلم الأول هو مطلع هذه الخيرات، وهو عبارة عن الإيمان والتصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، وإذا أشرق على القلب ثار الندم الباعث على ما تقدم، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة له، والترك كالثمرة والتابع وبهذا الاعتبار قالصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: الندم توبة، إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه)[١].

(١) الأخلاق، السيد عبد الله شبّر، ص٢٤١.

وقال الراغب في المفردات: (التوبة: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو يقول: فعلت وأسأت وقد قلعت، وهذا الأخير هو التوبة، والتوبة في الشرع ترك الذنب بقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة[1].

والحمد لله رب العالمين

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة (توب).



المبحث الثاني

● **التوبة أمر حقيقي من مقتضيات الاسم (التواب)**

ذكرنا في البحث السابق أن القرآن الكريم طرح موضوع التوبة بصورة مختلفة تماماً عما طرحته الرسالات السماوية السابقة وهناك سورة كاملة اسمها (التوبة) فضلاً عن أكثر من ثمانين آية تحدثت عنها من جهات مختلفة، وتؤكد النظرة القرآنية أن التوبة أمر حقيقي وليس اعتبارياً.. بمعنى أنه أمر يقع في عالم الوجود والتكوين وله آثار وجودية على الإنسان التائب.

ولا يخفى علينا أن الاسم (التواب) هو أحد الأسماء الإلهية، وهو صيغة مبالغة تعني من الناحية اللغوية أن الله سبحانه (كثير التوب) أي كثير الرجوع فهو توّاب! والله سبحانه وتعالى تواب يحب التوابين.. كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾.. فهو سبحانه يرجع على عبده المذنب ويحب أن يرجع عبده إليه بالتوبة والإنابة.. تواب يحب التوابين..



• حقيقة التوبة تتكون من ثلاثة رجوعات

وعلى ضوء الاسم الإلهي (التواب) وبالاستناد إلى معطيات الآيات القرآنية التي تحدثت عن التوبة نجد أن التوبة بعد تحليلها عقلياً وقرآنياً تتركب من ثلاثة رجوعات أو ثلاث توبات يتألف منها معنى التوبة الذي يطرحه القرآن، نذكرها أولاً بشكل مختصر، وهي:

١. توبة ورجوع من الله سبحانه إلى العبد، لأن الله سبحانه لا يمكن أن يترك عبده الفقير إليه سائراً في طريق المعاصي والذنوب والهلاك بل يرجع الله على العبد بالتوفيق والمعونة ويفتح له باب التوبة. وهذا هو الرجوع الأول من الله إلى العبد المذنب.

٢. بناءً على فتح باب التوبة من الله سبحانه وتعالى سوف يتوب العبد ويرجع إلى ربّه بالتوبة وترك طريق المعصية والذنب، وهذا رجوع ثان من العبد إلى الله سبحانه.

٣. إذا رجع العبد إلى الله سبحانه حسب النقطة السابقة رجع الله عليه بالمغفرة وقبول التوبة وهذا رجوع آخر من الله لاحق برجوع العبد، وعليه فكل توبة من العبد محفوفة بتوبة سابقة وتوبة لاحقة من الله عز وجل.

ومن اللازم أن نبين هنا أن هذه الرجوعات الثلاثة في حقيقة التوبة تستند حسب التحليل القرآني إلى حقيقة المسيرة التكوينية التي يمر بها الإنسان من بداية خلقه ونزوله إلى هذا العالم وحتى صعوده ورجوعه إلى الله عز وجل، وكيفية تعلّق الهداية الإلهية به، وهذا ما نذكره في عدة نقاط:

١. إن الإنسان بالنظر إلى الكمال والكرامة والسعادة الواجبة له في حياته الأخروية عند الله سبحانه - والتي لا غنى له عنها في مسيرة وجوده الاختيارية- فقير كل الفقر بحسب نفسه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[(١)].

٢. بناء على ذلك فإن حال الإنسان في نشأة الدنيا هو أنه هبط إلى دار الشقاء والبعد والمسكنة والفقر الحقيقي، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[(٢)].

٣. وبناءً على النقطتين السابقتين فإن الإنسان لا يمكنه أن يصل منزلة الكرامة واستقراره في مقام السعادة الحقيقية إلا أن

---

(١) فاطر: ١٥.

(٢) التين: ٤-٥.

يخرج من مهبط الشقاء ودار البعد برجوعه إلى ربّه، وهذا الرجوع هو توبته إلى الله في أصل السعادة وهو الإيمان، وكذلك برجوعه وتوبته في كل سعادة فرعية وهي كل عمل صالح، بعبارة أخرى التوبة والرجوع عن أصل الشقاء وهو الشرك بالله سبحانه، وعن فروع الشقاء وهي سيئات الأعمال بعد الشرك، فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله والانخلاع عن ألواث البعد والشقاء يتوقف عليها الاستقرار في دار الكرامة بالإيمان، وبعبارة أخرى: يتوقف القرب من الله ودار كرامته على التوبة من الشرك ومن كل معصية. قال تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[1].

٤. ثم إن الإنسان لما كان فقيراً في نفسه لا يملك لنفسه خيراً ولا سعادة إلا بربّه كان محتاجاً في هذا الرجوع أيضاً إلى عناية من ربّه بأمره، وإعانة من الله في ذلك، فلكي يرجع الإنسان إلى ربّه بالعبودية والمسكنة والطاعة سوف يحتاج إلى رجوع من ربّه إليه بالتوفيق والإعانة، وهو توبة الله سبحانه المتقدمة على توبة العبد إلى ربّه، كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**﴾[2].

---

(١) النور: ٣١.

(٢) التوبة: ١١٨.

٥. وحيث أن الرجوع إلى الله سبحانه يحتاج في قبوله إلى مغفرة الذنوب وتطهير الإنسان من قذارة المعصية.. وذلك يحصل بقبول التوبة من الله، وهذه هي التوبة الثانية من الله سبحانه المتأخرة عن توبة العبد إلى ربه[1].

● **لماذا يرجع الله على الإنسان ويتوب عليه؟**

وحيث أن رجوع الله على عبده وتوبته عليه هو أساس بحث التوبة والتي لا يمكن أن تتحقق بدونه فلا بد أن نعطي بعض التصورات التي تفتح لنا آفاق البحث في هذا الموضوع.

نحن نعلم أن الشيطان خاطب الله سبحانه وتعالى وقال: بعزتك لأغوينهم أجمعين.. وهذا الخطاب الشيطاني لله سبحانه هو نوع من العناد والتمرد تجاه الله عز وجل...

ومن المؤكد أن الله سبحانه لا يقبل بذلك.. أي لا يقبل أن يحقق الشيطان مراده ويغوي الناس أجمعين.. ولكن المعصية والذنب عندما يصدران من الإنسان يتحقق الإغواء.. أي أن الإنسان العاصي قد وقع في إغواء الشيطان.. أسره الشيطان.. صار أسيراً ومسبياً عند الشيطان.. والله سبحانه لا يمكنه أن يترك الإنسان بهذا الحال أكيداً.. ولا يمكن أن يسمح للشيطان

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص ٢٥٠-٢٥١.

باستمرار عملية الإغواء.. ولا يفتح باباً لرجوع المذنبين إليه سبحانه وتخلصهم من أسر الشيطان.. لأن تركهم على هذه الحال يعني انتصاراً للشيطان وعناده وخصومته أمام الله سبحانه عندما قال: لأغوينهم أجمعين.. ومن الواضح أن هذا الخاطب الشيطاني شديد اللهجة لأنه يقسم بعزة الله أنه يغوينهم أجمعين.. إلا عبادك منهم المخلصين...

وحيث أن الله سبحانه يحب عباده ولا يريد لهم إلا الخير والكمال.. ولا يتركهم في إسارة الشيطان ففتح لهم باب التوبة.. ورجع إليهم.. لأنه هو التواب الرحيم.. وناداهم بالرجوع إليه سبحانه: توبوا إلى الله جميعاً! لأن طريق الذنوب والمعاصي يؤدي بكم إلى منزل البعد والشقاء والهلاك سواء كان بإغواء من الشيطان أم النفس الأمارة بالسوء.. وكأن الله سبحانه وتعالى لا همّ له إلا أن يرجع عباده إليه ولا يتركهم سائرين في مزالق المعاصي والظلمات والشهوات.. لأنه هو الذي خلقهم.. وهو الذي وهبهم الكمال والحياة والوجود.. فحاشا أن يتركهم في نشأة الهلاك... ومن هنا فإن الإنسان التائب الذي يلبي نداء التوبة الإلهي سوف يتحرر من أسر الشيطان ويرجع إلى الحرية الحقيقية عند الله سبحانه.. ولذلك ورد في الروايات المعتبرة أن

الإنسان المذنب إذا تاب يحصل فرح وبهجة في الملأ الأعلى.. وفي عالم الملكوت والملائكة! وليس معنى الفرح هنا هو الفرح الاجتماعي.. كلا.. بل هو نوع من الابتهاج التكويني في عوالم النور والكمال العليا.

● لماذا يفرح الملأ الأعلى عند توبة العبد؟

ولسائل أن يسأل: ما هي العلامة بين توبة العبد وبين حصول الفرح في الملأ الأعلى؟

والجواب: أن هناك قافلتين.. قافلة الرحمن وقافلة الشيطان.. والإنسان الذي يغويه الشيطان ويسلك طريق المعاصي سوف يخرج من قافلة الرحمن ويلتحق بقافلة الشيطان وعند ذلك يحصل حزن من الملائكة على هذه الخسارة لأن الإنسان خليفة الله وليس من المفترض به أن يقع في ولاية الشيطان! ولذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان في هذا العالم وهبه العقل والقلب والوجدان وأرسل له الأنبياء والرسل والأولياء عليهم السلام من أجل أن يبقى في ركب الولاية الإلهية.. وحتى لو استزّله الشيطان مع كل هذه الإمكانات فإن الله لا يتركه بل فتح له باب التوبة ورجع إليه بالرحمة والمغفرة.. وعندما يتوب الإنسان سوف يخرج من قافلة الشيطان ويلتحق

بقافلته الأصلية.. وهي الولاية الإلهية.. فالتوبة هي الباب الـذي يتحرر منه المذنبون من سبي الشيطان وأسارته! لأن الإنسان عند المعصية والذنب هو في الحقيقة أسير مكبل بسلاسل الشهوات.. والله يريد أن يحرره بالتوبة.. ويطهره بالإنابة والمغفرة.

لنتأمل هذه الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام:

(عن أبي عبيدة الحذاء، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقـول: إن الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضـل راحلتـه وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشـد فرحـاً بتوبـة عبـده مـن ذلـك الرجل براحلته حين وجدها!)[1].

انظروا كيف يصور الإمـام عليه السلام فرحـة الله سـبحانه بتوبـة عبده؟ إن الرجل الذي يفقد راحلته وزاده في ليلة ظلماء سـيكون معرضـاً للهـلاك لا محالـة.. فكيـف يكـون فرحـه وسروره إذا وجدها؟! من المؤكد أنه سيكون فرحاً عظـيماً لأنـه سـينجو مـن الموت والهلاك.. يقول الإمـام عليه السلام إن الله أشـد فرحـاً مـن هـذا الإنسان إذا رجع عبده وتـاب إليـه!! وبالمقارنـة أن الله سـيكون أشـدّ حزنـاً عنـدما يتركـه الإنـسان ويـسير في طريـق المعـصية والذنب.. إذن توبة العبد يفرح بها الله سبحانه لأنه يرجع إليـه..

---

(١) الكافي، ج٢، ص٣١٦، حديث٨.

ومعصية العبد تحزنه لأنها تبعد عبده عنه..

وفي رواية أخرى: (عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي إلى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي إلى بقاع الأرض: اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب)[1].

وفي هذه الرواية عدة نقاط تستحق الوقف:

هناك أثران مهمان للتوبة النصوح وهما: أحبه الله، وستر عليه في الدنيا والآخرة.. أي أن التائب ينال الحبّ الإلهي.. ومن آثار هذا الحبّ هو أن الله يستر عليه.

وهنا يأتي سؤال معاوية: كيف يستر عليه؟

يبين الإمام عليه السلام أن الستر الإلهي يتحقق من خلال ثلاثة مراحل وهي:

١. ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب!

ومن المعلوم أن واجب الملكين هو كتابة ذنوب الإنسان -

(١) الكافي، ج٢، ص٣١٤، باب التوبة، حديث ١.



كراماً كاتبين- وأن كتابهم لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.. وهم لا يعصون الله.. ولا يغفلون.. ولا يشتبهون.. ولا ينسون.. لأن واجبهم التكويني هو إحصاء أعمال الإنسان في الدنيا.. لكن انظروا إذا تاب العبد توبة نصوحاً فإن الله سبحانه ينسي الملكين ما كتبا عليه من الذنوب!!

بحيث لو سألهم الله يوم القيامة عن ذنوب العبد التائب لقالوا: لم يفعل!! لأن الله أنساهم ذلك.. يمحو هذه الذنوب من سجلاتهم! هذا أحد آثار الحب الإلهي الذي يناله الإنسان عندما يوفق للتوبة النصوح.

٢. يوحي إلى جوارحه أن اكتمي عليه ذنوبه، إذ من المعلوم أيضاً أن جوارح الإنسان تشهد عليه يوم القيامة، كما يقول سبحانه: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1].. لكن عندما يتوب الإنسان توبة نصوحاً.. الله سبحانه وتعالى يوحي إلى هذه الجوارح تكويناً أن اكتمي ذنوبه!! فتسكت الجوارح وتخرس ولا تشهد عليه يوم القيامة.

٣. ويوحي إلى بقاع الأرض أن اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب! إذ إننا نعلم أن بقاع الأرض أيضاً من الأمور التي

(١) النور: ٢٤.

تشهد على أعمال الإنسان يوم القيامة سواء كانت أعمالاً حسنة أم سيئة.. وإذا تاب الإنسان توبة نصوحاً فإن الله سبحانه يوحي إلى بقاع الأرض التي كانت محلاً لذنوب هذا الإنسان.. البيت.. الشارع.. وأي مكان آخر يمكن أن يصدر فيه الذنب.. ويأمرها الله بكتمان هذه الذنوب أي لا تشهد عليه يوم القيامة! انظروا إلى آثار هذه الرحمة.. هكذا يعامل الله عباده التائبين الراجعين إليه.. ينسي الملائكة.. يوحي إلى الجوارح.. يوحي إلى بقاع الأرض.. من أجل ستر العبد التائب.. وتكون النتيجة يوم القيامة: فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب! فهو سبحانه الرحمن الذي فتح باب التوبة.. والتواب الذي فتح باب المغفرة.. والغفور الذي فتح باب العفو.. وكل ذلك يرجع إلى رحمته التي وسعت كل شيء!

وفي رواية أخرى ذات معنى عميق يصور علاقة الله سبحانه وتعالى بعباده التائبين نقلها صدر الدين الشيرازي في تفسيره المعروف، وهي:

قال عبد الله أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التفّ عليه الكساء، قال: يا رسول الله إني مررت بغيظة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن

ووضعتهن في كسائي، فجاءت أمهنّ فاستدارت على رأسي -أي طارت وظلت تدور فوق رأسه- فكشفت لها عنهنّ -أي فتحت الكساء وجعلتها تراهنّ- فوقعت عليهنّ - أي سقطت على فراخها مباشرة- ثم يقول: فلففتهنّ معها - أي أنه صادها معهنّ- فقال رسول الله: ضعهنّ عنك، فأبت أمهنّ إلا لزومهنّ - أي أن أم الفراخ أبت أن تترك فراخها ولزمتهنّ- ومحل الشاهد: أن مقتضى الحال إذا وقعت الفراخ في الصيد فالمفروض من الأم أن تهرب وتبتعد ولا تقع معهنّ في الصيد، في حين نرى أن هذه الأم رمت بنفسها معهنّ في الكساء!!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أتعجبون لرحم أم الفراخ؟ قالوا: نعم يا رسول الله، أي نعجب من هذه العاطفة التي تحصل عند هذا الطائر، فقال صلى الله عليه وآله: فوالذي بعثني بالحق لـ الله عز وجل أرحم بعباده من أم الفراخ بفراخها!! ارجع بهنّ حتى تضعهنّ من حيث أخذتهنّ وأمهنّ معهنّ...

أي أن الله سبحانه وتعالى أرحم بكم من هذه الأم مع فراخها ... والله سبحانه هو الذي يبحث عنك دائماً ولا يتركك أسيراً في شبكات المعاصي والذنوب والشهوات وظلمات الدنيا.. سبحان الله: نحن في البحث الفلسفي والبحث الكلامي نبحث

عن الله ونريد أدلة على وجود الله.. أليس كذلك؟! في الحقيقة والواقع التكويني الله سبحانه وتعالى هو الذي يبحث عنّا! لأن الإنسان المذنب العاصي هو ضائع.. اصطادته شبكات الذنوب والأهواء والشهوات والشيطان والنفس الأمارة بالسوء.. والله سبحانه يبحث عنه ولا يتركه ويفتح له باب التوبة والمغفرة والعفو وغيرها من أبواب النجاة والخلاص من الهلاك والشقاء الحقيقي... نحن في شهر رمضان المبارك ندعو بهذا الدعاء المنقول عن المعصومين عليهم السلام: اللهم إن كنت لا ترحم إلا المطيعين فمن للعاصين؟! وهذا الدعاء يضعنا أمام حقيقة إلهية، إذ فعلاً إذا كان الله لا يرحم إلا المطيعين، فمن يرحم العاصين والمذنبين؟ هل عندهم ربّ وخالق آخر هو الذي يرحمهم؟!! نعم يا ربّ نحن عصينا وأذنبنا لكن في آخر المطاف أين نذهب؟ أين نولّي وجوهنا؟! إذن ليس سواك نطرق بابه فأنت ترحم المطيعين والعاصين.. ترحم المطيعين بحسب الثواب والجزاء.. وترحم العاصين بالتوفيق للتوبة والإنابة وفتح باب العفو والمغفرة...

إخواني.. حتى العقوبات الإلهية في الدنيا هي من باب الرحمة.. لأن الله سبحانه منزه عن الانتقام والتلذذ بالعقوبة.. بل هو ينتقم ويعاقب لأنه يرى الإنسانية والمجتمع يسير في طريق

الهلاك والشقاء الكامل والبعد والجفاء عن عالم الكمال والنـور.. ومن المستحيل حسب رحمتـه أن يـتركهم كـذلك.. فيبعـث لهـم الأنبياء والرسل والرسالات السماوية.. للهداية والإنذار.. فإن لم ينفع ذلك جـاءتهم العقوبـة لتنـذرهم ولـترجعهم إلى صراط الله المستقيم. (وما الله بغافل عـما تعلمـون) الله لا توجـد في سـاحته غفلة عن عباده.. عندما يسقط العبد في المعصية فإن الله سـبحانه يمد له يد العون والتوفيق بالإنابة والرجوع إلى الله.. لكن الأهم أن يلتفت الإنسان لهذه الفرصة ويتمسك بحبل النجاة، نعم هذا التنبيه الإلهي يختلف من حالة إلى أخرى فتارة ينبهك بموعظة أو موقف صعب تمرّ به.. وتارة أخرى يكون التنبيه شـديداً ويحمـل نوعاً من القساوة باعتبار الغفلة الشديدة التي تحيط بالإنسان عند الذنب والمعصية في بعض الحالات، التي يحتاج معهـا المـذنب إلى تأديب شـديد لكـي يـستيقظ وينتبـه ويرجـع إلى سـبيل الكـمال والرشاد.. ومن الضروري أن نشير هنا إلى أن العثرات التي يمـر بها الإنسان في حياتـه أكثرهـا مـن هـذا القبيـل لأن الله سـبحانه وتعالى يحبّه ويريد له الرجوع عن الاسـتمرار في طريـق المعـاصي والذنوب والسيئات.. وليس من الصحيح أن ننظر لهذه العثرات من زاوية سلبية ونعترض على الله سبحانه ونقـول: يـا ربّ مـاذا

فعلنا لكي تفعل بنا هكذا؟!! هذا ليس صحيحاً أكيداً.. إخـواني الأعزاء: المعصومون في أدعيتهم يقولون: اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم! اللهم اغفر لي الـذنوب التـي تنـزل الـنقم!! فكيف حالنا نحن الغارقون في ظلمات هذه الدنيا؟!

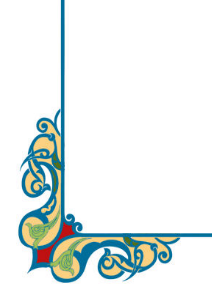
الله سـبحانه وتعـالى يعاجلـك بـالابتلاء لأنـك لا تعـرف طريق السعادة الحقيقية ولا تعرف طريق الهـلاك الحقيقـي.. ولا تعرف تأثير السموم التي تتناولها عند سـلوك طريـق المعـاصي.. وأنها تؤدي إلى هلاكك الحقيقي.. فيفتح الله لـك طريـق العـودة والرجوع والخلاص، لكن كل إنسان له طريقه الخاص.. فهنـاك من يرجع بإشارة.. وهناك من يرجع بموعظة.. وهناك من يرجع بعبرة أو موقف خاص.. وهناك من يرجع بـالابتلاء والعقوبـة.. إذن هذه النظرة للعقوبات والابـتلاءات الإلهيـة سـوف تعطينـا معنى ايجابي عميق يوجّه حياة الإنسان نحـو الكـمال والخـلاص والسعادة الحقيقيـة.. ولـيس معناهـا التـشفّي والانتقـام بمعنـاه السلبي الموجود عندنا.

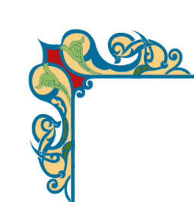
إن الذنب والمعصية في حقيقتها تعتبر موتاً للإنـسان.. لأن الذنب يؤدي إلى موت القلب وظلمانية النفس ومـن هنـا تكـون التوبة هي الحياة.. لأن الإنسان في حالة الذنب يقطع الصلة بـالله



سبحانه.. لأنه متمرد وعاصي فينقطع الاعتصام بالله عز وجل.. وبالتوبة تعود له الحياة الحقيقية.. فالتوبة حياة بعد الموت.

والحمد لله رب العالمين





المبحث الثالث

ذكرنا في البحوث السابقة أن الإنسان عندما يسير في طريق المعصية وارتكاب الذنوب سوف يبتعد عن الله سبحانه وتعالى، وكلما ابتعد عن الله سوف تتسع مساحة الظلمانية في وجوده.. وإذا لم يوفق للتوبة والرجوع إلى الله سبحانه سوف تزداد الظلمانية إلى أن يصل إلى الهلاك.. وهذا ما يعبر عنه القرآن بـ(ختم القلوب).

• تعميق لمعنى الاسم الإلهي (التوّاب)

ذكر أهل المعرفة أن الله سبحانه وتعالى يلتقي بالإنسان في دائرة الطيبات، بمعنى أن الارتباط الحقيقي الذي يعبر عن الكمال بين الله وبين الإنسان هو مقدار الارتباط الإيجابي أي الطاعة لله سبحانه في حياة الإنسان ووجوده.. وهو ما نعبر عنه بدائرة الطيبات والطهارة والنور، فلو فرضنا أن مساحة الطيبات عند الإنسان في قلبه وروحه ونفسه تمثل ٢٠٪ من وجوده والمساحة الأخرى التي هي ٨٠٪ ستكون ظلمانية غير طيبة..

فهذا يعني أن هذا الإنسان مرتبط بالله سبحانه وتعالى مباشرة بنسبة ٢٠٪ ارتباطاً حقيقياً وتكوينياً، لأن هذه الجهة هي الجهة الطيبة من وجود الإنسان، وأما الجهة الأخرى التي تمثل الظلمانية غير الطيبة فهي غير حاضرة ومشهودة عند الله مباشرة، لأن الله طيب ونور في نور.. لا تحضر عنده الخبائث والظلمانية.. نعم هذه الجهة الظلمانية هي جهة الذنوب تحضر عند الملائكة الموكلين بكتابة الذنوب وتسجيل أعمال الإنسان والشهادة عليه يوم القيامة.

لكن الله سبحانه وتعالى لا يترك هذا الإنسان وهو على هذه الحال، بل يريد أن تتسع دائرة الطيبات والنورانية في وجوده فيفتح له باب التوبة لكي يملأ الجهة الظلمانية بالنور الإلهي ويصبح كله طيباً طاهراً.. وكلما كثرت التوبة من الإنسان ازدادت مساحة الطيبات في نفسه.. وعندما تتحقق التوبة قلبياً وعقلياً ونفسياً وبدنياً فهذا يعني أن جميع أجزاء وجود الإنسان مرتبطة بمصدر الطيب والكمال والنور.. والله سبحانه وتعالى هو (التواب) أي كثير الرجوع على الإنسان.. وهذا يعني أن الله دائماً يريد أن تزداد نسبة الطيبات في حياة الإنسان.. فهو تواب علينا في أصل الإيمان أي يرجع على الكافر والمشرك بالتوبة ليخرجه

من ظلمات الشرك والكفر.. بالرغم من أن الإنسان الكافر عنده نسبة الظلمانية مائة بالمائة لكن باب التوبة يبقى مفتوحاً أمامه ما دام في هذه الحياة.. وكذلك هو تواب على الإنسان المؤمن المخالف في الفروع والمرتكب للمعاصي مع إيمانه لأنه يريد منه أن يزيد مساحة الطيبات في قلبه ووجوده لكي يرتبط بالله سبحانه وتعالى بصورة أكبر وأشد ثباتاً.

ومن هنا يتجلى معنى الرواية التي ذكرناها سابقاً من أن الله يستر على التائب ذنوبه السابقة ويوحي إلى الملائكة الكاتبين وجوارحه والأرض التي كان يمشي عليها أن تستر ذنوبه.. لأن هذا الإنسان التائب سوف يزيل جهة الظلمانية السابقة من وجوده بسبب رجوعه وتوبته إلى الحبيب، والحبيب لا يذكر عليه سيئاته وزلاته حسب قانون الحب! وهكذا الحال مع الله سبحانه وتعالى فإنه يوحي إلى (الملائكة والجوارح والأرض) بأن تمحو وتنسى ذنوب هذا الإنسان..

يقول في دعاء كميل: (أن تهب لي.. كل جرم أجرمته.. وكل ذنب أذنبته.. وكل سيئة أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين.. الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني.. وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي.. وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم.. والشاهد لما



خفي عنهم.. وبرحمتك أخفيته.. وبفضلك سترته..).

فالله سبحانه وتعالى يخفي ويستر السيئات على الملائكة الكرام الكاتبين!! إنه هو التواب الرحيم!

والآن نقرأ ما قاله أهل المعرفة في شرح الاسم الإلهي (التواب) لارتباطه الجوهري ببحث التوبة وحقيقتها، يقول صدر الدين القونوي في كتاب شرح الأسماء الحسنى: التواب: العائد على عبده ببرّه، الذي قابل الدعاء بالعطاء، والاعتذار بالاغتفار، والتوبة بالمغفرة.

اعلم إن من عموم رحمة الحق بعباده، أنه تعالى يقبل التوبة والطاعات، لا المعاصي، وذلك لأن المقبول مشهود، ولا يشهد الحق من عباده إلا ما هو حسن مقبول عنده، فالحسن المقبول من الأعمال في ديوان الحق، والسيئات في ديوان الملائكة، فإن الحق طيب لا يقبل إلا طيباً، ولا بد لكل عبد أن يكون على خلق من مكارم الأخلاق، وهو الأمر الطيب المقبول، وهو الشفيع لصاحبه عند الله بعد استيفاء المحاسبة في ديوان الملائكة، فإذا وقع فراغ الملك بما اقتضاه العبد، ورفع أمره إلى الحق يجد العبد في رجوعه إلى الحق شفيعاً، وهو الخلق الكريم الذي كان عليه - كان العبد من كان- فإن له بذلك في داره نعيماً دائماً في نفسه، وإن

ظهر عند غيره غير ذلك، لأن التواب حاجب على باب الكريم، يجازي على السيئة الحسنة، وفضل الله أوسع من أن يقيده المقيد، ولا يعظم الفضل الإلهي إلا في المذنبين وأهل الإساءة، فإن المحسنين ما عليهم من سبيل!)[١].

إن الخلق الكريم الذي يكون شفيعاً للإنسان هو ما كنا نسميه الجهة الطيبة من وجود الإنسان والتي لا بد أن تكون موجودة دائماً لكي يتحقّق الرجوع الإلهي من خلالها لأن الله طيب لا يتصل إلا بالطيب.. فيكون الخلق الكريم شفيعاً ينقذ الإنسان من دائرة الظلمانية والعقاب والهلاك.. والله كريم يجازي على السيئة الحسنة (يبدل الله سيئاتهم حسنات) هكذا هي رحمته التي وسعت كل شيء.. ولا يعظم الفضل الإلهي إلا المذنبون لأنهم يدركون بعمق حقيقة هذا الفضل عندما تتحقق التوبة والمغفرة.

● العلاقة بين العبادة والتوبة

قلنا في بحث العبادة أن حقيقة ارتباط الإنسان بالله سبحانه وتعالى هي أنه مملوك تكويناً له سبحانه بالملك الحقيقي.. وهذه هي العبودية التي تمثل الفقر الحقيقي في قبال الغنى

(١) شرح الأسماء الحسنى، صدر الدين القونوي، ص٣٥١، (التواب).

الحقيقي المطلق لله عز وجل، وفي العبادة يتجلى الفقر الحقيقي عند الإنسان أمام خالقه ومالكه المطلق.. وعند صدور المعصية من الإنسان سينفك هذا الارتباط بنسبة ما.. وكلما ازدادت الذنوب قلّ الارتباط بالله إلى أن يصل إلى درجة ختم القلب.. وفي هذه النقطة ينفتح بحث التوبة.. لأن الإنسان عندما يفقد عبوديته بسبب المعصية ويبتعد عن الله فإن باب التوبة هو الذي يرجعه إلى صراط الكمال ولو لا باب التوبة لاستمر المذنب في طريق الهلاك الأبدي.

يقول السيد السبزواري قدس سره في هذا المجال:

(التذلل لدى المعبود الحقيقي الجامع لجميع الكمالات غير المتناهية، والاعتراف بالقصور والتقصير عنده، محبوبان لديه عز وجل، والعبودية التي هي غاية مقامات العارفين وأولياء الله المخلصين متقومة بهما، فإنه لا ريب في تحقق الارتباط بين الممكن والواجب، كالارتباط بين المعلول مع العلة التامة، والمخلوق مع الخالق، بلا فرق في ذلك بين المجردات والماديات، فإن جميعها متعلقة بالإرادة الأزلية حدوثاً وبقاءً، وبزوالها ينعدم جميع ما سوى الله تعالى، ولا يبقى إلا وجهه الواحد القهار، ولكن الإنسان يرتبط مع الله جل جلاله بارتباطين:

الأول: الارتباط العام القهري، الذي يعم جميع الخلق وما سواه تعالى.

الثاني: الارتباط الاختياري، أي الطاعة والامتثال والانقياد، وهذا هو الأصل والأساس في علاقة الإنسان مع الله عز وجل، فإذا زال يبقى الارتباط الأول وهو يعم الجميع - الحيوان والجماد- على حدّ سواء.

والإنسانية إنما تظهر في الارتباط الثاني، ولا يزول إلا بالطغيان والعصيان وحينئذ لا بد من التوبة والرجوع إلى الله تعالى ليعود الارتباط إلى ما كان عليه، وتستكمل به الإنسانية، وتزول الشقاوة وتحل محلها السعادة الأبدية، إذ القرب من ينبوع الحكمة والعلم والكمال المطلق يوجب بلوغ الإنسانية إلى الكمال، ويتم به العقل والدين، كما أن البعد عنه يوجب زوال ذلك كلّه، فللتوبة الحقيقية دخل في استكمال الإنسانية والدين والعقل، ويكفي في فضلها أن فيها يتجلى المعبود الأعظم للتائبين بقوله عز وجل: (وأنا التواب الرحيم) ولذا ترى أن أحبّ حالات المتعبدين إلى الله تعالى هي حالة الاعتراف بالتقصير، كما هو واضح في الدعوات المأثورة عن الأئمة الأطهار (سلام الله تعالى عليهم)، لا سيما الصحيفة الملكوتية السجادية على صاحبها

ومنشئها أفضل الصلاة والسلام، وليس الاعتراف بالتقصير مع عدم صدور ذلك عنهم كذباً، لأنهم يعلمون أن تلك الحالة محبوبة لله عز وجل وتقربهم إليه تعالى، ويعترفون بذلك في جملة من دعواتهم الشريفة، وهذا كاشف عن اشتياقهم إلى هذا المقام من العبودية)[1].



على ضوء ذلك نفهم الارتباط الوثيق بين مقام العبودية وبين حقيقة التوبة فإن العبد الحقيقي يرى نفسه دائماً في تقصير حقيقي أمام الغني المطلق والكمال اللا متناهي.

● **تفسير بعض المنحرفين لحقيقة التوبة**

هناك بعض الاتجاهات المنحرفة التي تدعي السلوك إلى الله تعالى أو يدعون زوراً وكذباً أنهم من أهل علوم الباطن ويقولون أننا نريد أن ننال مقام التوبة وكمالها.. وهذا لا يحصل إلا بالمعصية!! أي أننا لا بد أن نعصي الله سبحانه أولاً ثم نتوب إليه!!! بل نفعل المنكرات - والعياذ بالله- لكي ننال كمال التوبة.. وقد سمعنا ممن ينقل عنهم قصصاً عجيبة وأفعالاً مشينة يترفع عن ذكرها لسان المتأدب بأدب الدين.

ونحن بما ذكرناه في هذا البحث يتضح جواب أمثال

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج٢، ص٣٩٣-٣٩٤.

هؤلاء الجاهلين المنحرفين، لأن التوبة في حقيقتها رجوع إلى الله سبحانه وتعالى وهذا الأمر يتحقق في جميع مراتب القرب الإلهي.. باعتبار أن الإنسان العابد مهما وصل من درجة القرب فسوف يبقى أمام الكمال المطلق اللامتناهي محدوداً فقيراً.. وكلما رجع من مرتبة إلى أخرى أعلى منها وجد مرتبة أخرى أعظم وأكمل فيطلب الرجوع إليها وهكذا إلى ما لا نهاية.. فيبقى سائراً في صراط التوبة من توبة إلى توبة أكمل وأعظم لينال بذلك الكمالات الحقيقية وليس الانحرافات والشهوات والمعاصي!!

فعندما نسمع الإمام السجاد عليه السلام يقرأ مناجاة التائبين أو دعاء طلب التوبة، فهل يعني ذلك أنه ارتكب الذنوب والمعاصي والعياذ بالله؟!! كما يدعي هؤلاء المنحرفون، كلا، وإنما هو يطلب كمالات التوبة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى والسير في الصراط المستقيم لأنه هو التواب الرحيم الذي نرجع إليه بجهتنا الطيبة الطاهرة وليس بارتكاب المنكرات والموبقات التي يدعيها أمثال هؤلاء المدنسون لحقيقة التوبة.

إن التوبة مبدأ قرآني للجميع كما في قوله تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ**﴾ وبالتالي فإن التوبة لها درجات مختلفة باختلاف نوع الذنب والتقصير أمام الله عز وجل، فتارة يكون

الذنب ذنباً جوارحياً بدنياً مثلاً كالاعتداء على الآخرين.. وتارة يكون الذنب قلبياً.. وأخرى يكون الذنب عقلياً أو نفسياً وهكذا.. وكل ذنب منها له توبته الخاصة ورجوعه الخاص نحو الحق سبحانه وتعالى.. وحيث أن الله لامتناهي ومراتب قربه لامتناهية.. فكلما تقدم العبد مرتبة نحو الكمال تجلّت له سعادة أخرى وكمال آخر فينظر إلى المرتبة التي هو فيها فيجد نفسه مقصراً أمام المرتبة الأعلى فيتوب من هذه المرتبة ويرجع إلى الله في المرتبة الأعلى والأكمل.. وهكذا.. مهما تقرب الإنسان نحو الله سبحانه سوف يبقى يرى نفسه مقصراً يحتاج إلى توبة والله تواب يحبّ التوابين.. ويحب المتطهرين الراجعين إلى إليه.

فعن النبي صلى الله عليه وآله في وصيته لأبي ذر الغفاري رحمه الله: يا أبا ذر: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله عز وجل أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أمسوا تائبين وأصبحوا تائبين..

يا أبا ذر: إن الله لم يوح إليّ أن اجمع المال، ولكن أوصى إليّ: أن سبح بحمد ربّك وكن من الساجدين.. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

● الذنوب في أدعية المعصومين عليهم السلام

على ضوء ما قلناه في حقيقة التوبة سوف يتضح معنى

الذنوب الواردة في أدعية المعصومين عليهم السلام.. فإن المعصوم عندما يعترف بأنه مذنب أو مقصّر أمام الله سبحانه وتعالى لا بد أن يكون صادقاً في ذلك التزاماً بمقتضيات عصمته، لكن من ناحية أخرى لا بد أن نوجه معنى هذه الذنوب وعدم منافاتها للعصمة.

إن اعتراف المعصوم بالذنب مع الاعتقاد بعصمته يرجع إلى اختلاف مراتب القرب الإلهي التي نعبر عنها من خلال هذا المضمون المعروف وهو: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) أي أن عملاً من الأعمال يكون حسناً بالنسبة إلى مرتبة من مراتب القرب، ويكون سيئاً بالنسبة إلى مرتبة أخرى.. ومن هنا إذا كان هذا العمل سيئةً بالنسبة للمقربين فلا بد له من توبة.. مع أنه حسن في مرتبة الأبرار!

ولا بد أن نعلم أيضاً أنه كلما ازداد القرب الإلهي ازدادت معه دقة الذنوب.. وكلما تكامل الإنسان في درجات القرب فلا بد أن يحتاط أكثر من جهة التكليف الإلهي.. ولتقريب ذلك نستعين بهذا المثال القرآني حول زوجات النبي صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾[1].

---

(١) الأحزاب: ٣٠.

فإن الفاحشة إذا صدرت من النساء الأخريات لها عـذاب واحد مخصوص عند الله سبحانه، ولكن نفس هذه الفاحـشة إذا صدرت من نساء النبي فيكون عقابهن ضعفين من هذا العذاب! بالرغم من قربهنّ من النبـيصلى الله عليه وآله.. ومـن الواضـح أن مـضاعفة العذاب بسبب القرب من النبي، لأن القـرب مـن هـذا الوجـود الطاهر الكامل يستدعي أن يكون الإنـسان عـلى أعـلى درجـات والاحتياط والالتزام.. فكيف تصدر عنه الفاحشة؟! وهكذا كلّما تقرب الإنسان إلى الله سبحانه في صراط القـرب والتكامـل كلّـما زاد التزامه وشدة احتياطه تجاه مولاه الحق عـز اسـمه.. ولـذلك نجد الأولياء الواصلين الكمّل يعتـبرون أن الغفلـة عـن الله مـن أكـبر المعـاصي والـذنوب!! أي يغفـل عـن الله للحظـة واحـدة يعتبرها معصية! بالرغم من أن ذلك لـيس معـصية عنـدنا نحـن الناس العاديين، وهذا ما نسميه معصية المرتبة، فكـل مرتبـة مـن مراتب القرب الإلهي لها حسناتها وسيئاتها الخاصة بها.

ولتقريـب هـذا المعنـى مـن خـلال مثـال مـن حياتنـا الاجتماعية.. نفرض أن إنساناً كان في سفر وعند رجوعه لم يـأتِ بهدية إلى جيرانه مثلاً.. إن هذا الأمر قد يبدو طبيعياً إلى حـدٍ مـا، ولكن لو كان هناك شخص من عائلته وبينهما علاقة حبّ ومودة

ولم يأتِ له بهدية بعد السفر سوف يكون ذلك التصرف ذنباً وسيئة بالقياس إلى علاقة الحب الموجودة بين الطرفين.. مع أنه كان تصرفاً طبيعياً بالقياس إلى الناس الآخرين كالجيران، ويكون هذا التصرف مع الحبيب (سيئة حبّية) لو صحّ التعبير، وعليه فالسيئات والذنوب تختلف باختلاف علاقة الحب ودرجات القرب.. وعليه فالأنبياء والأئمة والمعصومون عليهم السلام توابون بحسب مرتبتهم.. بل هم قدوة التوابين.. وقدوة الراجعين إلى الله سبحانه.. ونحن نقتدي بهم بالتوبة والإنابة.

• جواب السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره حول ذنوب الأنبياء وتوبتهم

لا شك أن موضوع ذنوب الأنبياء عليهم السلام وتوبتهم الواردة في لسان بعض الآيات القرآنية أصبح من الموضوعات المثارة في البحث العقائدي بسبب عدم انسجام الذنب والتوبة مع العصمة الثابتة لهم بالدليل العقلي والقرآني، وتتميماً لما ذكرناه في البحث السابق من أن ذلك راجع إلى اختلاف مرتبة القرب الإلهي نذكر هنا ثلاثة شواهد وردت في كلمات كبار المحققين في هذه المسألة، ولنبدأ بما ذكره السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره في أجوبته حول رفع الشبهات عن الأنبياء عليهم السلام.

فقد سئل قدس سره حول قوله تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا

﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

وحسب هذه الآيات الكريمة فقد صدر من آدم الظلم للنفس، ولا أقل من إثبات ذلك عليه من كونه طلب المغفرة والتوبة من المولى جلّ وعلا، فكيف نفسر ذلك مع القول بعصمته؟

وقد يقال نفس الشيء بالنسبة إلى نبي الله نوح عليه السلام، حيث قال: ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣)، ومع نبي الله يونس عليه السلام حيث قال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٤)، وكذلك على لسان موسى عليه السلام: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾(٧)، فكان جوابه، كما يلي:

(١) الأعراف: ٢٣.

(٢) البقرة: ٣٧.

(٣) هود: ٤٧.

(٤) الأنبياء: ٨٧.

(٥) الأعراف: ١٤٣.

(٦) الأعراف: ١٥١.

(٧) القصص: ١٦.

(كل مؤمن يقرّ لا محالة أمام الله سبحانه وتعالى بالذنب ويسأله العفو والمغفرة والرحمة لا يختلف في ذلك المعصوم عن غير المعصوم.

أما غير المعصوم فواضح باعتبار أن له ذنوباً فعلية ويستحق عليها العقاب لو لا العفو الإلهي أو الشفاعة، وأما المعصوم فمن عدة جهات، بعد التسالم على أن معنى العصمة هو عدم وجود الذنب عنده على غرار ما هو موجود في غيره، فإذا لوحظ هذا المستوى كان الاستغفار بلا موجب لأن الذنب غير موجود لديه، ولكن لا ينحصر الاستغفار في ذلك، بل يمكن أن يكون على مستويات أخرى، منها:

المستوى الأول: التواضع أمام الله سبحانه والتضرع إليه، فهو يعتبر نفسه مذنباً وإن لم يكن كذلك لأجل المزيد من التواضع والتضرع.

المستوى الثاني: إن المعصوم وإن كان معصوماً عن ذنوب عموم الناس، إلا أن له مستواه الخاص به الذي يشعر من خلاله بكونه مذنباً أمام الله سبحانه والذي يسمى بلغة المتشرعة (مخالفة الأولى) والتي اصطلح عليها بـ(الذنوب الدقية) فيستغفر الله منها.

المستوى الثالث: إن الله تعالى لامتناهي في جميع الجهات، ولا يستطيع العبد مهما أوتي من كمال أن يبلغ حق طاعته أو عظمته، بل يبقى الفرق عظيماً بينهما لا محالة، فمن أجل الشعور بهذا القصور والتقصير يمكن أن يستغفر المعصوم.

ومن الممكن القول عندئذٍ أن لكل واحد من هذه المستويات كما لغيرها من مستويات الذنوب نتائجها الخاصة بها، كالغواية والظلم ونحوهما مما نصّت عليه الآيات الكريمة، فكما يمكن أن نلاحظ الذنب دقياً غير قابل للصدق على سائر الناس كذلك يمكن أن نفهم الغواية والظلم على هذا المستوى أيضاً ويرتفع الإشكال)[١].

● **جواب السيد عبد الله شبّر** قُدِّسَ سِرُّهُ

أما المحقق المعروف السيد عبد الله شبّر قُدِّسَ سِرُّهُ فيجيب عن ذلك في كتابه المشهور (الأخلاق) بما يلي:

(اعلم إن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال، فلا ينفك أحد عنه البتة، قال تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً**﴾ فعمّم الخطاب، وكل إنسان لا يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في

(١) رفع الشبهات عن الأنبياء، السيد الشهيد السعيد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ، ص٢٢-٢٤.

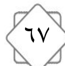
بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب في القلب، فإن خلا عن الهمّ فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن الغفلة والقصور في العلم بالله وصفاته وآثاره بحسب طاقته، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بتشاغل أضدادها رجوع عن طريق إلى ضده.

والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، وأما الأصل فلا بد منه.

إلا إن الأنبياء والأوصياء ذنوبهم ليست كذنوبنا، فإنما هي ترك دوام الذكر والاشتغال بالمباحات وحرمانهم زيادة الأجر بسبب ذلك، ولهذا ورد: (إن حسنات الأبرار سيئات المقربين) وقال الصادق عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله ويستغفر في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب، إن الله يخصّ أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب - أي كذنوبنا- فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله.

وهذا باب شريف ينفتح منه معاني اعتراف الأنبياء والأئمة عليهم السلام بذنوبهم وبكائهم وتضرعهم)[1].

(١) الأخلاق، السيد عبد الله شبّر، ص٢٤٤.




● **جواب العلامة الطباطبائي قدس سره**

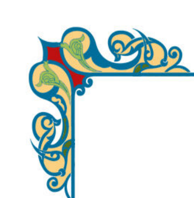
يجيب السيد الطباطبائي قدس سره حول إشكال ذنوب الأنبياء وتوبتهم من خلال اختلاف مراتب القرب الإلهي ونسبة بعضها إلى بعض، فيقول:

(القرب والبعد لما كانا نسبيين أمكن أن يتحقق البعد في مقام القرب بنسبة بعض مواقفه ومراحله إلى بعض، ويصدق حينئذٍ معنى التوبة على رجوع بعض المقربين من عباد الله الصالحين من موقفه الذي هو فيه إلى موقف أرفع منه وأقرب إلى ربّه، كما يشهد به ما يحكيه تعالى من توبة الأنبياء وهم معصومون بنصّ كلامه، كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ -إلى قوله- وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

وهذه التوبة العامة من الله سبحانه هي التي يدل عليها إطلاق آيات كثيرة من كلامه تعالى كقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾. إلى غير ذلك)[1].

والحمد لله رب العالمين

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص٢٥٢.



المبحث الرابع

• التوبة جزء من الرؤية الكونية للعالم

ذكرنا في مستهل هذا البحث أن التوبة التي يطرحها القرآن الكريم هي أمر حقيقي يقع في عالم التكوين والوجود، بمعنى أن الرسالة الخاتمة تطرح موضوع التوبة كجزء من الرؤية الكونية والنظام الوجودي العام الذي يحكم العلاقة بين الله وبين الإنسان، ولا يمكن أن ننظر للتوبة بتلك النظرة البسيطة الأولية ضمن نظام العقوبات والجزاء.. أي أن الإنسان التائب تغفر له ذنوبه وتسقط عنه العقوبة.. كلا.. وإن كان هذا صحيحاً لكنه ليس هو جوهر التوبة، بل التوبة بالمعنى القرآني هي سير وجودي بمعنى الرجوع، وحيث أن الرجوع لا يمكن أن نفترضه إلا أن نفرض قبله المجيء أو الهبوط، إذن لا بد أن نسأل: لماذا جئنا وابتعدنا؟ ولماذا نرجع ونعود؟

إذ من الواضح عندما نقول أن التوبة هي الرجوع فهذا يعني أن المحل الذي نرجع إليه قد جئنا منه سابقاً. ولتوضيح ذلك: تارة نقول: جئت إلى النجف.. وتارة أخرى نقول: رجعت

إلى النجف.. ومن المؤكد أن هذا التعبير الأخير يدل على أنني كنت سابقاً في النجف وابتعدت عنها ثم رجعت لها، بخلاف التعبير الأول الذي لا يدل على ذلك. وعليه فحيث أن التوبة هي رجوع إلى الله.. وصعود إلى العالم العلوي.. عالم الكمال والنور.. فهذا يعني أننا كنّا هناك في أصلنا الوجودي ثم ابتعدنا أو هبطنا. والآن يطلب منا الرجوع والعودة والصعود.

على ضوء ذلك ينفتح البحث في تحليل حقيقة التوبة كما قلنا سابقاً من أنها مركبة من ثلاثة رجوعات:

١. توبة ورجوع من الله سبحانه نحو العبد.

٢. توبة ورجوع من العبد نحو الله سبحانه.

٣. توبة من الله سبحانه نحو العبد بغفران الذنب.

أي أن توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله سبحانه وتعالى، توبة سابقة وتوبة لاحقة.

● بيان آخر لمعنى رجوع الله على الإنسان

ذكرنا فيما سبق من الأبحاث أن توبة الله سبحانه على العبد ورجوعه إليه هو الأساس الذي تستند إليه حقيقة التوبة والرجوع إلى الله، ومن المعلوم أن موقع الإنسان ضمن الرؤية الكونية التي يتبناها القرآن الكريم هو موقع (خليفة الله) ونقصد

هنا الخلافة التكوينية في عالم الوجود والإمكان، كما نصّ القرآن عليه بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ثم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم أمر الله سبحانه ملائكته بالسجود لهذا الخليفة فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر.. ثم وضع الله سبحانه هذا الخليفة في جنة هو وزوجه وقال لهما لا تقربا هذه الشجرة.. لكن وسوس لهما الشيطان فأكلا منها.. ثم عرف آدمعليه السلام أنه أخطأ فتوجه إلى ربّه بالتوبة.. ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾.. ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.. ثم جاء نداء إليه آخر: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ أي اهبطوا من هذه الجنة والمقام العلوي..

تجدر الإشارة هنا إلى أن حادثة أو قصة الأكل من الشجرة والوسوسة والخلافة الإلهية كل منها يحتاج بيانها إلى بحث مستقل لكننا نذكر هذه المراحل بشكل مختصر جداً بما ينسجم مع بحث التوبة.. والفقرة المهمة في بحث التوبة هي (اهبطوا) وهذا الهبوط يعني أن الشيء ينزل من مرتبة أعلى إلى مرتبة أدنى.. ستنقلون من عالم أعلى إلى عالم أسفل.. ولا بد أن نؤكد هنا أن آدمعليه السلام جعله الله خليفة له قبل أن يوسوس له الشيطان بل قبل أن يأمر الملائكة بالسجود له، لأنه قال في أول القصة: إني جاعل

في الأرض خليفة... ونفهم من ذلك أن آدم سيكون خليفة أرضي لو صح التعبير في نظام التكوين والوجود.. فهناك حتمية في نزول آدمعليه السلام.. ولكن كيف حدث هذا النزول وعلى أساس أي نظام تكويني؟ القرآن يذكر ذلك أن الشيطان وسوس له.. فهبط أبونا آدم إلى هذه الدار.. التي يطلق عليها القرآن أنها دار الشقاء، كما في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.. فخرج آدم من دار الكرامة والنورانية المطلقة وهبط إلى دار الشقاء والعناء..

ولكن هل ترك الله سبحانه خليفته آدم وهو على هذه الحال؟ الجواب: كلا، بل قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾.

إذن، هدى الله موجود معك أيها الإنسان الخليفة.. ومن تبع هذا الهدى سينجو من الشقاء.. وهذا ما حصل منه نشأة التكليف في هذا العالم لذرية آدمعليه السلام.. فالإنسان في الحياة الدنيا مخيّر بين طرق الصلاح والخير وبين طرق الفساد والشّر.. ثم قال الله للإنسان: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.. والفلاح يعني الرجوع إلى الله وإلى دار السعادة والكرامة الحقيقية التي هبطنا منها.. لأن دار السعادة هي التي

يعود إليها أصل وجودنا وليس عالم الدنيا.. نعم عالم الدنيا جئنا إليه من خلال مرتبة من مراتب الوجود التي اقتضتها الحكمة الإلهية لكي تتحقق فيها الخلافة الإلهية من قبل الإنسان (خليفة الله) ومركز الكون والوجود.. لأن الملائكة لا يمكن أن تكون خليفة لله في عوالم الوجود.. بل الإنسان وحده القادر على تحمل هذه المسؤولية العظيمة والأمانة الإلهية التي أشفقت منها السماوات والأرض!!

نعم الإنسان الذي يخلقه الله تعالى في عالم الشقاء والشهوات والملذات ويقول له ارجع إلى الله باختيارك.. ويرجع فعلاً.. فهذا هو الخليفة الذي له الكرامة والذي خلقه الله في أحسن تقويم..

وهنا تأتي توبة الله الأولى على الإنسان يقول: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ...﴾ أي أن الله يرجع بهداه على الإنسان الهابط في هذا العالم السفلي.. فهذه توبة الله الأولى.. وهو التواب الرحيم.. ثم بعد ذلك تأتي توبة العبد إلى الله سبحانه.. ولو لا التوبة الأولى من الله لما أمكن حصول التوبة الثانية من العبد لأن الباب سيكون مغلقاً حينئذٍ ولا معنى لرجوع العبد إلى الله عز وجل. وإذا تاب العبد يتوب الله عليه بالتوبة الثانية بالمغفرة

والرضوان وقبول الأعمال فيطهره من الذنوب ويمحو عنه السيئات.. وعليه فالتوبة بمراحلها الثلاث هي في حقيقتها سير تكويني يقطعه الإنسان في مسيرة وجوده الطويلة ضمن النظام الوجودي التكاملي الذي أراده الله سبحانه لهذا العالم.. وهذا السير التكويني له آثار عقائدية وأخلاقية وغيرها.

• معرفة الذنب مقدمة تكوينية لتحقق التوبة

لا شك أن بحث التوبة مرتبط ارتباطاً مباشراً بموضوع الذنوب.. ولكي نستوفي البحث في التوبة لا بد من إدخال عنصر الذنب ومعرفة دوره في تحقق التوبة.

إن المعصية الحقيقية ومخالفة الأمر الإلهي تؤثر تأثيراً تكوينياً ووجودياً في قلب الإنسان ونفسه.. وكلما ازدادت المخالفة والتمرد على الله سبحانه وتعالى وارتكاب المعصية كلما تجذّر الإنسان في عالم الدنيا.. تصبح له جذور ممتدة امتداداً عميقاً.. ومن هنا سوف تكون توبة ورجوع الإنسان الغارق في الذنوب صعبة نوعاً ما، لأنه إذا أراد أن يرجع إلى الله سبحانه عليه أولاً أن يقلع هذه الجذور الممتدة في أرض الشهوات.. ويحتاج في ذلك إلى توفيق وعون وهداية من الله عز وجل.. وبالمقابل فإن الذي يرتكب الذنوب بنسبة أقل ستكون توبته

ورجوعه إلى الله أسهل وأيسر.. وعليه فإن معرفة الذنب والوقوف على حقيقته وحجمه مقدمة ضرورية لحصول التوبة.. ومن دون معرفة الذنب لا يمكن أن نتصور تحقق التوبة الصحيحة، لأن الإنسان إذا أراد أن يرجع إلى الله فلا بد عليه أولاً أن يعرف أين يقف أولاً؟ وبأي درجة في درجات التمرد هو؟ ومع عدم هذه المعرفة فإنه قد يعود من ذنب إلى ذنب آخر.. أو يخرج من معصية إلى معصية أخرى لأنه لا يعرف حقيقة ودرجة المعصية التي هو فيها.

• كيف نعرف حقيقة الذنب؟

إن معرفة حقيقة الذنب ودرجة التمرد على الله سبحانه تتم من خلال الالتفات إلى أمور ثلاثة:

الأمر الأول: لا بد أن يعرف الإنسان المذنب أنه في حالة الذنب وارتكاب المعصية ينخلع عن العصمة الإلهية.. لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً**﴾ ويقول: ﴿**وَمَن يَعْتَصِمْ بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. وقد قلنا في بحث العبادة أن الإنسان المعتصم بالله يكون كالماء الكثير الذي لا يتنجس بملاقاة النجاسة.. أي يكون معتصماً بمصدر الكمال والطهارة والنور.. وعليه فإن الإنسان في حالة ارتكابه للذنب

والمعصية تنفك عنه العصمة الإلهية ويكون كالماء القليل ينجس عند ملاقاته أي مقدار من النجاسة، أي شهوة أو وسوسة تكفي لارتكابه الذنب لأنه غير معتصم، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إذن غير المعتصم بالله (المذنب) أثناء المعصية لا يكون مهدياً إلى صراط مستقيم، تنفك عنده عقدة الاعتصام بالله.. ونقصد هنا الجانب التكويني عند الإنسان، أي أن الإنسان أثناء المعصية ضال وجودياً، وليس البحث في المغفرة والرحمة والجزاء يوم القيامة لأن هذا بحث مستقل خارج عما نحن فيه من تصوير حقيقة الذنب أثناء وقوعه.

هذا هو الأمر الأول الذي لا بد أن يعرفه الإنسان عندما يرتكب المعصية وهو فقدان الاعتصام بالله سبحانه.

الأمر الثاني: إن الإنسان المذنب في حالة الذنب تصيبه حالة من الفرح والسرور عند الظفر بالذنب.. كما أن السارق أو الزاني أو آكل الحرام يشعر ببهجة وسرور داخلي عند العزم على الذنب وارتكابه إلى درجة أن تغيب عنه العصمة الإلهية.. وفي مقابل هذا الفرح والبهجة عند العاصي يوجد غضب وسخط إلهي.. أي أن الإنسان مسرور فرحان والله سبحانه ساخط غاضب!! وعليه فعندما يلتفت الإنسان إلى هذا الحال ويريد

الرجـوع إلى الله سـبحانه فينبغـي عليـه الحـزن والبكـاء والتـألم والحسرة لأنه كان فرحاناً في قبال الغضب الإلهي.. فيحزن ويتألم قلبياً على ما فرط في جنب الله.

الأمر الثالث: إن الإنسان المذنب على يقين بأن الله سبحانه ينظر إليه لحظة الـذنب، ويعتقـد أنـه يفعـل ذلـك في محـضر الله سبحانه.. وهذا اعتقاد يقيني.. ومن الواضح عظمـة هـذا الأمـر وهوله لو تصورناه بصورة دقيقة، فكيف يتمرد الإنسان عـلى الله وهو في حضرة الله وشهوده؟!!

هل يستطيع أحـد منـا أن يرتكـب معـصية في حـضرة أمـير المؤمنين عليه السلام؟!! هل يستطيع أحد منا أن يرتكب معصية عند مرقـد السيد الشهيد قدس سره؟!! مثلاً.. أصلاً لا نفكر في ذلك فـضلاً عـن أن نرتكبه فعلاً... والسبب أننا عـلى يقـين مـن أن أمـير المـؤمنين عليه السلام والسيد الشهيد قدس سره يشهدون ذلك وينظرون إليه ولـذلك لا نفعلـه ولا نفكر بفعله في حضرتهم، في حين أن الإنسان المذنب يعلم أنه في منظر الله سبحانه ولكنه يفعل الذنب ويرتكب المعصية.. فيعلم أنـه قد هتك حرمة المولى سبحانه وتمـرد عـلى سـلطانه وجبروتـه.. لأن العالم كله سماواته وأرضه وما فيهنّ وما بيـنهنّ في الحـضرة الإلهيـة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ

عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٢).

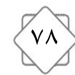
والتعبير القرآني بـ(لا يعزب) تعبير دقيق معناه: لا يبتعد عنه ولا يغيب عليه ولا يفوته..

فنحن نعيش ونمشي ونأكل وننام ونعمل وكلنا في الحضرة الإلهية.. فكيف تصدر من الإنسان المخالفة والمعصية في حضرة صاحب الحضرة؟!! وعندما يدرك الإنسان عظمة هذا العصيان والتمرد سوف يكون رجوعه إلى الله وتوبته نصوحاً لأنه يعلم ويدرك عظيم جنايته وبتصور هذه الأمور الثلاثة ومعرفتها وهي الانخلاع عن العصمة الإلهية، والفرح بالذنب في مقابل السخط والبغض الإلهي، وارتكاب الذنب وهو يعلم يقيناً أنه في حضرة الله سبحانه وسوف تكون توبته توبة صحيحة تحقق له الرجوع والإنابة الحقيقية لله عز وجل.

---

(١) سبأ: ٣.

(٢) يونس: ٦١.



• التوبة فضل من الله وليس واجبة القبول عليه سبحانه

على ضوء ما قلناه حول حقيقة التوبة يطرح السؤال التالي:

هل أن التوبة وقبولها – سواء كانت توبة الله على العبد أم توبة العبد إلى الله– واجب عليه سبحانه؟ بمعنى أن التوبة إذا تحققت من العبد يجب على الله سبحانه قبولها؟

في هذا المجال وجد اتجاهان بين المحققين في علوم العقيدة والتفسير. ذهب الاتجاه الأول إلى أن العقل يوجب على الله سبحانه قبول توبة العبد إذا تاب توبة نصوحاً، في حين ذهب الاتجاه الآخر – وهو الصحيح– إلى أن الله سبحانه وتعالى يقبل توبة العبد، لكن اللزوم ووجوب قبولها ليس سببه حكم العقل كما يذهب إليه الاتجاه الاعتزالي في تفسير قضايا العقل العملي المختصة بالعقيدة والدين.. بل قبول التوبة هو رحمة من الله سبحانه بالإنسان الذنب.. كتبها الله على نفسه.. ومن هنا نستطيع القول من الناحية العقلية أن الله سبحانه ليس ملزماً بقبول التوبة.. نعم هو ملزم لأنه هو الذي وعد بذلك.. وهو الذي كتب على نفسه قبول توبة التائب.. وهو لا يخلف الميعاد.

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره في هذا الموضوع:

(إن التوبة من الله سبحانه لعبده – أعم من المبتدئة

والـلاحقة- فضل منه كسائر النعم التي يتنعم بها خلقه مـن غـير إلزام وإيجاب يرد عليه تعالى من غيره وليس معنى وجوب قبول التوبة عليه تعالى عقلاً إلا ما يدل عليه أمثال قولـه تعـالى: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[3]. وغيرها من الآيـات المتـضمنة لتوصيفه تعـالى بقبـول التوبـة، والنادبـة إلى التوبـة، الداعيـة إلى الاستغفار والإنابة وغيرها، المشتملة على وعد القبـول بالمطابقـة أو الالتزام، والله سبحانه لا يخلف الميعاد.

ومن هنا يظهر أن الله سبحانه غير مجبـور في قبـول التوبـة، بل له الملك من غير استثناء، يفعل ما يشاء ويحكم مـا يريـد، فلـه أن يقبل ما يقبل من التوبة على ما وعد، ويرد ما يرد منها، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾[4])[5].

---

(١) غافر: ٣.

(٢) النور: ٣١.

(٣) البقرة: ٢٢٢.

(٤) آل عمران: ٩٠.

(٥) الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص٢٥٣.



المبحث الخامس

• التوبة بين حق الله سبحانه وحقوق الناس

إن الذنوب التي تصدر من الإنسان والتي يطلب فيها التوبة تنقسم إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول: الذنوب التي تقع بين الإنسان وربّه من دون وجود طرف ثالث، كالإنسان الذي يترك الصلاة أو الصوم مثلاً أو يرتكب محرماً شرعياً كالكذب وغيره.

القسم الثاني: الذنوب التي لها علاقة بالآخرين بالإضافة إلى مخالفة الله سبحانه وعصيانه كالاعتداء على الناس أو غصب حقوقهم، سواء كانت حقوقاً مادية أو معنوية.

ولا شك في أن تحقق التوبة في القسم الأول يكون واضحاً ويسيراً من الناحية التطبيقية لبحث التوبة.. لأن هذه الذنوب تقع بين الإنسان وربّه ولا يوجد فيها إلا الحق الإلهي الذي انتهكه صاحب الذنب، والله سبحانه يتجاوز ويقبل توبة العبد ويكتب له المغفرة.

لكن الحال في القسم الثاني ليست كذلك، لوجود طرف

ثالث.. وهو الإنسان الذي اعتدي عليه من قبل صاحب الذنب.. ويوجد في هذا القسم إشكال مهم جداً ويعد من الإشكالات الأساسية في بحث التوبة، إذ إن الاعتداء على الآخرين وارتكاب ذنوب من هذا النوع يتم على نحوين:

النحو الأول: الاعتداء على الحقوق المادية للآخرين كالسرقة وأخذ المال غصباً وأمثالها.

النحو الثاني: الاعتداء على الحقوق المعنوية للآخرين كشتم الآخرين أو إهانتهم أو الاعتداء على أعراضهم وكرامتهم.

والتوبة في مثل هذه الذنوب تواجه إشكالاً معقداً لا بد من طرحه ومن ثم الإجابة عنه، وبناءً على القواعد القرآنية والشرعية العامة في باب التوبة فإن التوبة وحدها في مثل هذه المعاصي لا يمكن أن يتدارك بها المعصية التي صدرت.. بعبارة أخرى أن (ملف المعصية) لا يغلق بمجرد التوبة لأن العبد التائب يحتاج إلى تحصيل رضا الناس الذين اعتدى عليهم مادياً أو معنوياً وليس فقط رضا الله سبحانه، ومن الواضح هنا وجود طرف ثالث لا بد من إرضائه لكي تتم التوبة وتحصل نتيجتها.

والسؤال المهم هنا هو: لماذا تحصل هذه المشكلة؟

جوابه: أن هذه المشكلة تحصل بالاستناد إلى قاعدة قرآنية

أخرى وهي: أن الله سبحانه جعل للناس حقوقاً واحترم هذه الحقوق في أموالهم وأعراضهم ونفوسهم، فللإنسان حرمة في ماله ونفسه وعرضه، والله سبحانه لا يسمح بأن تنتهك هذه الحرمة أو يعتدى عليها، ووعد بالعقاب الشديد على ذلك.

فإن اعتدى شخص على شخص آخر بأحد هذه الأمور وانتهك حرمته وجاء بعد ذلك وطلب التوبة من الله سبحانه وقبل الله توبة المعتدي سوف يكون ذلك تغريراً وظلماً بالمعتدى عليه.. لأنه من جهة يقول له أن لك حقوقاً وحرمة في المال والنفس والعرض، ومن جهة أخرى يقبل توبة المعتدي ويغفر له وكأنه لا ذنب عليه!!

ولكن حاشا لله أن يغرر بعبده بهذه الصورة بحيث يعطيه حقوقاً وهو بنفسه يسلبها عنه! وحاشاه أن يسلب عباده شيئاً هو جعله لهم. قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾... ﴿وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾، وليس من شأنه أن يقبل التوبة بهذه الصورة. وفي هذه النقطة تكون المشكلة أكثر تعقيداً لأننا لا بد أن نبحث عن السبيل والطريقة التي تتحقق بها التوبة في هذا النوع من المعاصي، ومن هنا لا بد للإنسان أن يحذر أشد الحذر من ارتكاب هذه المعاصي لصعوبة الرجوع والتوبة فيها كما سنبين إن

شاء الله تعالى.

ومن هذا الباب أيضاً صعوبة التوبة إذا سنّ الإنسان سنة سيئة عمل بها الآخرون.. لأنه سيتحمل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة! لأن هذا الذنب ليس بين الإنسان وربّه بل انتشر بين الناس، فلا يمكن للإنسان المذنب أن يجلس في غرفته ويقول: أنا تبت من هذا العمل! وانتهى الحال. كلا، لأن مثل هذه المعصية يصعب فيها التوبة والرجوع إلى الله لأن العاصي أحدث فيها حدثاً له آثار تبقى ببقاء الحدث واستمراره ولا يمكن محوه بالتوبة فقط.

إن المعاصي والذنوب التي تتعلق بحقوق الآخرين تُدخل الإنسان العاصي في معادلة حساسة ومحرجة ومعقدة – لو صح التعبير– لأن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يقبل التوبة فلا بد أن يحصل رضا الطرف المعتدى عليه. لأن في هذه المعاصي حقّين:

أحدهما: حق الله المولى سبحانه وتعالى.

ثانيهما: حق الإنسان المعتدى عليه.

فالإنسان الذي يسرق أو يغتاب – والعياذ بالله– فهو متمرد على حقين، حق الله سبحانه لأنه ارتكب محرماً، وحق صاحب المال الذي تمت سرقته أو الشخص الذي تمت غيبته، أي

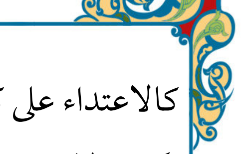
انتهك حرمتين، الحرمة الإلهية وحرمة الإنسان الآخر.

والحق الأول – الإلهي – يمكن أن يتدارك بالتوبة لأنه مختص بالله سبحانه وتعالى وهو التواب الغفور الرحيم، أما الحق الثاني فلا يمكن أن يتدارك بالتوبة وحدها.

وفي مثل هذا الوضع يكون الإنسان التائب أمام حالتين:

الحالة الأولى: أن الإنسان التائب لديه القدرة والاستطاعة على تدارك الحق الذي انتهكه – سواء كان مادياً أم معنوياً – وفي هذه الحالة يجب عليه القيام بذلك لكي تتم توبته وتُقبل. فإذا كان الحق مادياً أرجعه إلى صاحبه وحصّل رضاه، أما إذا كان الحق معنوياً كالغيبة والشتم وهتك حرمة الآخرين أو الاعتداء عليهم فيجب على التائب تدارك هذا الحق من خلال الاعتذار أمام الناس الذين اغتابه أمامهم مثلاً أو الذين علموا بهذا الاعتداء.. وإرجاع حرمة وكرامة ومقام الشخص المعتدى عليه.. ولا يمكن أن تقبل التوبة وتتحقق إلا بذلك.. ومن أراد أن يتوب من هذه الذنوب ولا يقوم بتدارك حق الآخرين مع استطاعته عليه فهو يخادع نفسه ليس إلا!

الحالة الثانية: إن الإنسان التائب لا يستطيع إرجاع حقوق الآخرين التي اعتدى عليها وخصوصاً في الحقوق المعنوية



كالاعتداء على كرامة وأعراض الآخرين وانتهاك حرمتهم، إذ قد يكون الاعتداء – والعياذ بالله- بدرجة لا يمكن البوح بها أصلاً أمام صاحب الحق!!

لاحظوا إخواني كيف تتعقد الأمور عند ارتكاب هذا النوع من المعاصي وكيف يكون الطريق صعباً لتحقق التوبة وقبولها.. لا نقول أن التوبة هنا مستحيلة.. كلا.. بل نؤكد على صعوبة الطريق. لأن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة النصوح لا محالة ولا يمكن لأحد أن يدعي غلق باب التوبة في مثل هذه الحالات.

إن المعادلة الإلهية – لو صح التعبير- أمامها حقّان: فمن جهة لا بد أن يحفظ حق الإنسان المعتدى عليه، ومن جهة أخرى لا بد أن يقبل توبة الإنسان التائب لأن باب التوبة مفتوح بمقتضى رحمته تعالى. ولا بد أن نصوّر التوبة في مثل هذه الحالات بالشكل الذي يحفظ كلا الحقّين حسب ما ندركه بعقولنا القاصرة المقصرّة ويبقى التفسير الحقيقي والواقعي موكولاً إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء.

وفي هذا المجال يمكن القول:

إن الله سبحانه وتعالى إذا علم أن الإنسان المعتدي قد تاب

توبـة نـصوحاً وهـو جـادّ وعـازم عـلى التوبـة مـن أمثـال هـذه الذنوب.. فيمكن أن ينبهّه بشيء من الـبلاء الـدنيوي.. وسـوف يشكل هذا البلاء جزءاً من العقوبة على ذلك الذنب الذي اقترفه بحقّ غيره وهذا البلاء والعثرات التي تصيب الإنسان التائـب في الدنيا بدرجة بحيث لو اطلع عليها ذلك الإنسان المعتـدى عليـه لرضي بهـا عقوبـة للإنـسان المعتـدي.. بعبـارة أخـرى كـأن الله سبحانه يوم القيامة يقول لـصاحب الحـق: إن هـذه الابـتلاءات والمصائب التي حصلت لهذا الإنـسان وحلّـت بـه في دار الـدنيا كانـت بـسبب اعتدائـه عليـك وانتهـاك حرمتـك.. ولـو اطّلـع صاحب الحق يوم القيامة عـلى عمـق تلـك الابـتلاءات ومـدى أثرها العظيم على الإنسان المعتدي لقبل بهـا عقوبـة لـه. فتكـون هذه الابتلاءات والعثرات والمنبهات من الـنعم التـي يـسببها الله سبحانه وتعالى لكي يتوب الإنسان المذنب المعتدي ويصحو مـن غفلته ومعصيته. وكل ذلك في التوبة النصوح فقط.

جدير بالذكر هنا – وهذا أمـر خطـير في حقيقـة المعـاصي والذنوب– أن الله سبحانه وتعـالى إذا علـم أن الإنـسان المـذنب سـيبقى متمـرداً عاصـياً وقـد خرجـت روح الإيـمان والطاعـة والمحبة الإلهية من قلبـه فـسوف يكـون مـشمولاً لقـانون: ﴿اللهُ

﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[(١)].. أما الإنسان الذي يحبه الله وتصدر منه المعصية والذنب فإن الله يبتليه ويعرضه للبلاءات التي ترفع غفلته.. وهذه دلالة على أن الله يريده أن يرجع ويتوب.. فيكون الابتلاء رحمة.. لأن الاستمرار على المعصية والذنب ستكون نتيجة الهلاك الحقيقي، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[(٢)].

ومن هنا لا بد أن يكون الإنسان التائب على مستوى كبير من الصبر والتحمل لهذه الابتلاءات في دار الدنيا.. لأنها ستكون سبباً في رجوعه وقبول توبته وكذلك سبباً في دفع العقاب الأخروي عنه. ولا بد أن نعلم أن هذا الأمر خاضع لسنن تكوينية ونواميس إلهية تحكم أفعال الإنسان.. فالتعرض للمحن والبلاءات الدنيوية يكون رحمة كبرى بالقياس إلى العقوبات الأخروية.

وهناك فكرة أخرى يمكن طرحها في هذا المجال: أن الله سبحانه وتعالى لو علم من التائب في أمثال هذه الذنوب أنه تاب

---

(١) البقرة: ١٥.

(٢) البقرة: ٧.

توبة نصوحاً وأقلع عن ارتكاب هذه المعاصي.. فإن الله سبحانه يوم القيامة بعظمته يطلب من الإنسان المعتدى عليه أن يعفو عن هذا الإنسان التائب (وهذا بنفسه مقام عظيم للإنسان المعتدى عليه) إذ يأتيه الطلب الإلهي أمام الملأ وفي ذلك المشهد العظيم بأن يعفو عن العبد التائب.. وإن أحد الأسماء الإلهية (العفوّ).. فتكون أنت يا صاحب الحق متسمياً بهذا الاسم الإلهي المبارك.. وقال تعالى: ﴿**وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾.. ومن المؤكد أن هذا الموقف والطلب الإلهي لو حصل مع صاحب الحق فإنه ضمن القواعد الشرعية والأخلاقية والتكوينية لا يمكنه رفض ذلك إطلاقاً.. ولا يمكن أن نتصور من ذلك الإنسان ردّ الطلب الإلهي.. لأن نفس هذا الطلب سيجعله في مقام الكرامة العليا أمام الخلق أجمعين.

وهكذا الحال فيمن سنّ سنة سيئة بين الناس وأراد أن يتوب إلى الله سبحانه منها فعليه أولاً أن يعلن للناس أن تلك السنة كانت سيئة وأنا الآن أتوب منها.. وإلا فسوف تجري في حقه السنن الإلهية (وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة).. ولو علم الله سبحانه من هذا العبد التائب أن توبته نصوح فسوف يشمله بالبلاء الدنيوي أو يكون شفيعاً له يوم القيامة لأن

الله سبحانه لا يردّ التائب.. وهكذا نعلم أن السنن الإلهية وقوانين الخلق والوجود كلها تتدخل لكي تنجي هذا الإنسان التائب من الهلاك في آثار المعاصي والذنوب.. ولعل من الأمثلة على ذلك ما جاء في بحث الشفاعة، إذ من الثابت عندنا قرآنياً وروائياً أن الشفعاء يوم القيامة يشفعون للمذنبين.. الله سبحانه شافع.. والأنبياء والشهداء.. والقرآن.. كلهم شفعاء.. فإن الشفاعة للمذنب وتخليصه من العذاب والعقاب ليست أمراً اعتبارياً كما نفهمه نحن في المجتمع الآن.. كلا.. لأن الذنوب لها أثر تكويني في وجود الإنسان وعليه لا بد أن يكون هناك قاعدة تكوينية تعمل لرفع العقاب عن المذنب.. وقد ذكر المحققون في بحث الشفاعة أن المذنب إذا دخل في دائرة الشفاعة فهذا يعني خروج المذنب من حيطة اسم إلهي ودخوله في حيطة اسم إلهي آخر.. فالمذنب عندما يكون تحت حيطة الاسم الإلهي (العدل) يكون مستحقاً للعقاب ويجب أن ينال عقابه المناسب، ولكن الله سبحانه له اسم آخر كالرحمن والغفور والعفوّ.. وهذه الأسماء الإلهية لها مقتضيات فيأتي اسم إلهي أوسع من الاسم (العدل) يخرج المذنب إلى حيطته كالرحمن.. والعفو.. والشفيع.. فتشمله الشفاعة والمغفرة..

إلا أنَّ السيد الطباطبائيقدس سره له وجهة نظر أخرى في موضوع (المعاصي التي تتعلق بحقوق الناس) حيث يقول:

(إن التوبة إنما تصلح ما يتعلق بحقوق الله سبحانه، وأما ما يتعلق من السيئة بحقوق الناس مما يحتاج في زواله إلى رضاهم فلا يتدارك بها البتة لأن الله سبحانه احترم الناس بحقوق جعلها لهم في أموالهم وأعراضهم ونفوسهم، وعدّ التعدي إلى أحدهم في شيء من ذلك ظلماً وعدواناً، وحاشاه أن يسلبهم شيئاً مما جعله لهم من غير جرم صدر منهم، فيأتي هو نفسه بما ينهى عنه ويظلمهم بذلك، وقد قال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾[1].

إلا أن الإسلام وهو التوبة من الشرك يمحو كل سيئة سابقة وتبعة ماضيه متعلقة بالفروع كما يدل عليه قولهعليه السلام: الإسلام يجبّ ما قبله، وبه تفسر الآية المطلقة الدالة على غفران السيئات جميعاً كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[2].

---

(١) يونس: ٤٤.

(٢) الزمر: ٥٣-٥٤.

ومن هذا الباب أيضاً توبة من سنّ سنّة سيئة أو أضل الناس عن سبيل الحق، وقد وردت الأخبار أن عليه مثل أوزار من عمل بها أو ضلّ عن الحق، فإن حقيقة الرجوع لا تتحقق في أمثال هذه الموارد لأن العاصي أحدث فيها حدثاً له آثار يبقى ببقائها، ولا يتمكن في إزالتها، كما في الموارد التي لا تتجاوز المعصية ما بينه وبين ربه عز اسمه)[1].

والحمد لله رب العالمين

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص٢٥٦-٢٥٧.



المبحث السادس

● لماذا شرَعت التوبة؟

من الأسئلة والإثارات المهمة في بحث التوبة هـو الـسؤال عن سبب تشريع التوبة، وقد ذكرنا في بداية هـذا البحـث أن الله سبحانه وتعالى فتح باب التوبة لكي يخلص الإنسان مـن الهـلاك والشقاء الذي تسببه الذنوب في المسيرة الوجودية للإنسان، وهذا هو السبب الرئيسي في فتح باب التوبة.. بـل هـو الـسبب الـذي يستند عليه مبحث التوبة بـشكل أسـاسي وهـو (الـتخلص مـن الهلاك).. وهناك سـبب آخـر سـيكون موضـوع بحثنـا في هـذه المحاضرة وهو (بثّ روح الرجاء) عند الإنسان المذنب..

● بث روح الرجاء

ولبيان معنى (بث روح الرجاء) نقول:

إن الإنسان المذنب الذي صدرت منه المعصية لو تـيقّن أن الله سبحانه لا يقبل منه توبة ولا رجوع ولا اعتـذار ولا أي شيء آخر سوف تسيطر عليه روح اليأس الكامل، باعتبار أن الإنـسان

المختار في نشأة الدنيا يتعادل في مسيرة حياته الخـوف والرجـاء.. أي أن عنصري الخوف والرجاء هما المقومان لمسيرة الإنسان نحو طاعة التكليف الإلهي.. بمعنى أن وجود الحساب والعقاب ونار جهنم التي تمثل عنصر الخوف سوف يُبعد الإنسان عـن المعـصية والمحرمات ويلتزم طريق الطاعة والامتثال، لكن الخوف وحـده غير كافٍ لحصول هذه النتيجة، لأن الإنسان المختار غير معصوم من ارتكاب الخطأ.. وقد تصدر منه المعصية لهذا الـسبب.. ومـن هنا لا يمكن للخوف وحده أن يكون باعثاً للإنسان نحو الالتزام والطاعة.. وفي مثل هذه الحالة يأتي عنـصر الرجـاء وتبقـى عنـد الإنسان روح الأمل والرجاء برجوعه إلى دائرة الطاعة والأعـمال الحسنة.. فتكون مسيرة حياته معتدلة بين الخوف والرجاء.

إن الضرر الذي تسببه روح اليأس وفقدان الأمل موجـود على جميع مستويات حياة الإنسان ولا يختص بمستوى التكليـف الشرعي، فلو فرضنا أن الطالب الأكاديمي لـو فـشل في اجتيـاز الامتحان النهائي في مادة ما ولم نقبل منه الدور الثـاني ولا إعـادة الامتحان ولا التماس ولا أي عذر آخر.. فبالتأكيد لا يمكن لهـذا الطالب الاستمرار بالدراسة وسوف تندثر مسيرة حياته العلميـة ويسيطر عليها اليأس التام، لكن لو بعثنا فيه روح الرجـاء وقلنـا

أن الذي يفشل بمادة أو مادتين فلـه الحـق في إعـادة الامتحـان في الدور الثاني.. وإذا فشل في الدور الثاني فله الحق في إعادة الـسنة الدراسية.. وحينئذٍ سـيبقى عنـده أمـل اسـتمرار مـسيرة حياتـه العلمية ويبقى عنده أمل النجاح في الدور الثاني أو السنة القادمة.

إذن قضية الخوف والرجاء حاكمة على حياة الإنسان سواء في حياته الطبيعيـة والاجتماعيـة أم في علاقتـه مـع الله سـبحانه، ولولا وجود عنصر الرجاء لانطفأت حياة الإنسان وغاب عنهـا نور الأمل.

ومن هنا تأتي التوبة من الذنوب لكي تمثل عنـصر الرجـاء ومفتاح الأمل في تصحيح وتقويم حياة الإنـسان مـع الله سـبحانه، فلو علم الإنسان المذنب أن ذنباً واحداً يهلكه ولا رجعـة فيـه.. ولا توبة تنفعه فسوف يتعذر عليه بعد ذلك أن تـصدر الأفعـال الحـسنة منه بسبب روح اليأس التي أحاطت به، ولكـي يـتخلص مـن هـذا الهلاك الحقيقي يفتح الله سبحانه له باب التوبة والإنابة لكـي يبعـث فيه الأمل ويبث فيه روح الرجاء للقيام بالأعمال الصالحة.

● حقيقة الرجاء

ولأهميـة الخـوف والرجـاء وتأثيرهمـا الكبـير عـلى حيـاة الإنسان نذكر هنا ما قاله السيد عبد الله شبر في هذا الموضوع:

(فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبـوب عنـده، ولكن ذلك المحبوب متوقع لا بد وأن يكون له سبب، فـإن كـان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجـاء عليـه صـادق، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق مـن اسـم الرجـاء، وإن لم تكـن الأسـباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنـي أصـدق عـلى انتظاره من اسم الرجاء.

وأيما كان فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يـتردد فيه.

وقد علم أربـاب القلـوب والعرفـان بالبيـان والوجـدان والعيان أن الدنيا مزرعـة الآخـرة والقلـب كـالأرض والإيـمان كالبذرة فيه، والطاعات جارية مجرى تقليـب الأرض وتطهيرهـا ومجرى الأنهار وسياق الماء إليها، والقلب المحب للدنيا كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يـوم الحـصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمى زرع إلا من بذر الإيمان، وقلّـما ينفع الإيمان مع خبث القلب بالأخلاق الرديئة، كما لا ينمى زرع في أرض سبخة، فليس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع.

فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً وأمدّه بـما

يحتاج إليه من سوق الماء في أوقاته، ونقى الأرض عن الشوك والحشيش وسائر الموانع وجلس منتظراً من فضل الله دفع الصواعق المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمّي انتظاره (رجاء). وإن بثّ البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها ماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه سمّي انتظاره (حمقاً وغروراً).

فينبغي للعبد أن يبث بذر الإيمان في القلب ويسقيه بماء الطاعات ويطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وينتظر من فضل الله تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، فإذا فعل ذلك كان انتظاره رجاء محموداً، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق وانتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور لا رجاء، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: الأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، أي أولئك ينبغي لهم أن يرجوا لا سواهم.

وعن الصادق عليه السلام أنه قيل له: إن قوماً من مواليك يلمون

---

(١) البقرة: ٢١٨.

بالمعاصي ويقولون: نرجو، فقال: كذبوا ليسوا لنا بموال، أولئك قوم ترجحّت بهم الأماني، من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف شيئاً هرب منه.

وقال عليه السلام: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً وراجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو.

واعلم أن الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات في جميع الأموال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله والتنعم بمناجاته.. فإن هذه الأحوال تظهر على من يرجو مثله من العبيد فيكف لا تظهر في حق الله؟ ومن ذلك يعلم أن جلّ رجائنا بل كله حمق وغرور، فالمستعان بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله!)[1].

ومن الواضح أن حقيقة الرجاء تعتمد على حسن الظن بالله عز وجل، لذا ورد عن الصادق عليه السلام: (حسن الظن بالله أن لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك).

وورد عن الباقر عليه السلام: (وجدنا في كتاب علي عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: وهو على منبره: والذي لا إله إلا هو ما

---

(١) الأخلاق، السيد عبد الله شبر، ص٢٧٧-٢٧٨.

أعطي مؤمن خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه لـه وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هـو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبـة والاسـتغفار إلا بـسوء ظنـه بـالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمـؤمنين، والـذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن مؤمن بالله إلا كـان الله عنـد ظـن عبـده المـؤمن، لأن الله كـريم بيـده الخـيرات يـستحي أن يكـون عبـده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخالف ظنه ورجـاه، فأحـسنوا بـالله الظن وارغبوا إليه..).

• حقيقة الخوف

أما الخوف فهو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، والخـوف مـن الله تـارة يكـون بمعرفـة الله تعالى ومعرفـة صـفاته، وتـارة يكـون بكثـرة الجنايـة مـن العبـد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله، فأخوف الناس لربّـه أعـرفهم بنفـسه وبربّه، ولذلك قالﷺ: (أنـا أخـوفكم لله)، ولـذا قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال الامتناع من المحظورات، ويسمى الكفّ الحاصل من المحظورات ورعاً، فإذا

زادت قوته وكفّ عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيسمى ذلك تقوى، وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى.

قال الصادقعليه السلام لإسحاق بن عمار: (يا إسحاق خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فهو يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك)!

وعنهعليه السلام: (من خاف الله خاف منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء).

وعنهعليه السلام: (من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا).

والخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه وهو خوف عموم الخلق المؤمنين بالجنة والنار، وإذا ضعف هذا الخوف فسببه ضعف الإيمان والغفلة ويقوى بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال القيامة وأصناف العذاب.

الثاني: وهو الأعلى، أن يكون الله تعالى هو المخوف، بأن يخاف العبد والحجاب عنه، ويرجو القرب منه، وهو خوف من

عرفه من الأنبياء والأوصياء والعلماء ممن عرفوا من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سرّ قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ﴾.

ويكفيك في ذلك بكاء الأئمة الطاهرينعليهم السلام وخوفهم ومناجاتهم، فما بالنا لا نخاف؟! لكثرة طاعاتنا؟ أم لقلة معاصينا؟ أم لغفلتنا وقسوتنا؟ فلا قرب الرحيل ينبهنا، ولا كثرة الذنوب تحركنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا، ولا خوف من سوء الخاتمة يزعجنا[1].

• هل إن فتح باب التوبة إغراء في ارتكاب المعصية؟

هناك إشكال مهم يطرح في بحث التوبة حاصله: أن فتح باب التوبة بهذا الشكل يؤدي بالإنسان إلى الإغراء في ارتكاب المعصية وتحريضاً على ترك الطاعة، إذ ما دام باب التوبة لا يمكن غلقه حسب الرحمة الإلهية العامة فللإنسان الحق أن يعصي ثم يتوب ويعصي ثم يتوب وهكذا .. ولولا فتح هذا الباب لكان جزاء الإنسان عند المخالفة والمعصية هو العقاب فقط.. ويكون رادعاً له عن ذلك.

تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الإشكال ليس مختصاً ببحث

(١) الأخلاق، السيد عبد الله شبّر، ص٢٨١-٢٨٧، بتصرف.

التوبة بل هو سيال في موضوع المغفرة والعفو والشفاعة.. لأن هذه المواضيع مرتبطة ارتباطاً مباشراً بذنوب الإنسان وكذلك التوبة.. مغفرة الذنوب.. العفو عن عقوبة الذنوب.. الشفاعة لإسقاط عقوبة الذنوب.. والتوبة من الذنوب.. فكلها مواضيع تدور حول ذنوب الإنسان. وهي أبحاث مترابطة من الناحية القرآنية والعقائدية والمنطقية أيضاً.

إذن هل من الصحيح أن نقول أن فتح باب التوبة هو إغراء بالمعصية وتحريض على ترك الطاعة.. وأن الإنسان إذا أيقن بأن الله يقبل توبته دائماً سوف يقترف كل معصية وتزداد جرئته على هتك حرمات الله والانغماس في المعاصي.. قاصداً أن يذنب ثم يتوب؟!!.

يجيب العلامة الطباطبائي قدس سره عن هذا الإشكال ويقرر أن هذا الكلام ساقط من أصله بمعنى أن صاحب هذا الكلام لم يفهم معنى التوبة التي يتحدث عنها القرآن الكريم، حيث يقول: (إن التوبة إنما شرعت مضافاً إلى توقف التحلي بالكرامات على غفران الذنوب: للتحفُّظ على صفة الرجاء وتأثيره حسن أثره، وأن ما ذكر من استلزام ذلك أن يقصد الإنسان كل معصية بنية أن يعصي ثم يتوب، فقد فاته أن التوبة بهذا الوصف لا يتحقق

معها حقيقة التوبة، فإن التوبة الحقيقية انقلاع عن المعصية، ولا انقلاع في هذا الذي يأتي به - أي عندما يعصي بنية التوبة- والدليل عليه أنه كان عازماً على ذلك قبل المعصية ومع المعصية وبعد المعصية، ولا معنى للندامة (أعني التوبة) قبل تحقق الفعل، بل إن مجموع الفعل والتوبة التي ينوي عليها في مثل هذه المعاصي مأخوذ فعلاً واحداً، مقصود بقصد واحد مكراً وخديعة يخدع بها ربّ العالمين، ولا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله)[١].

وكذلك الحال في باب المغفرة والشفاعة والعفو.. حيث يقول الإنسان العاصي: أنا أرتكب الذنب وسوف أنال المغفرة لأن الله غفور.. وأنال الشفاعة كما وردت في القرآن.. وأنال العفو لأن الله سبحانه يغفر ويعفو عن الذنب والمعصية التي تصدر من الإنسان بشكل مسترسل ابتداءً، لكن إذا خطط الإنسان العاصي وقال أنا أعصي وأعصي.. لأن الله غفور رحيم.. فهذا مكر وخديعة.. يخادع بها نفسه وربه! إذ من القبيح أن يتعامل الإنسان ويفكر بهذا النوع من التفكير مع الله سبحانه وتعالى.. بل لا بد أن يكون على أعلى درجات الاحتياط والالتزام تجاه خالقه عز وجل.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص٢٥٦.

أيها الإخوة الأعزاء: في مبحث حق الطاعة في علم أصول الفقه يذهب السيد الشهيد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ إلى أن احتمال التكليف الإلهي منجز فضلاً عن الظن أو القطع به، حيث يقول هناك أن عقلي العملي يدرك إدراكاً مباشراً وأولياً أنني أطيع الله حتى في احتمال التكليف حفظاً لحق مولويته.. لأنه خالقي ومولاي الحقيقي!

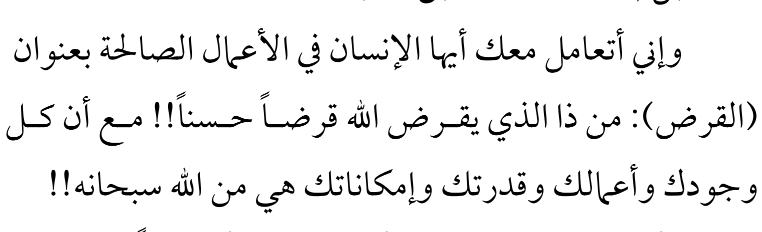
أنظروا هنا إلى حق المولوية الذي أدركه السيد الشهيد قُدِّسَ سِرُّهُ لماذا كان حق هذا المولى من الناحية العقلية واسعاً إلى درجة أني أطيعه حتى في الاحتمال؟

ولتوضيح حقيقة هذا الإدراك العقلي نقول: أن الله سبحانه تجب طاعته لأنه مولانا الحقيقي.. وهو مولانا لأنه خالقنا.. وإذا كان خالقنا فهو مالكنا بالملك الحقيقي التكويني.. ومعنى ذلك: ليس لنا حقٌّ عليه سبحانه.. فكل وجودنا منه سبحانه.. والحق كله له لا غير.. ومع كل ذلك فتح لنا باب التوبة وقال إذا أخطأت بحقي وارتكبت الذنب والمعصية فأنا أرجع عليك.. وأتوب عليك ولك الحق أن ترجع وتتوب وتنال المغفرة وقبول الأعمال!!

وإذا صدرت منك سيّئة فأحاسبك بمثلها.. وإذا صدرت

منك الحسنة فلك عشر أمثالها!!

بل إن الحسنات يذهبن السيئات!!



وإني أتعامل معك أيها الإنسان في الأعمال الصالحة بعنوان (القرض): من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً!! مع أن كل وجودك وأعمالك وقدرتك وإمكاناتك هي من الله سبحانه!!

وأن هذا القرض سوف أرجعه لك أضعافاً مضاعفة: يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له!!

إذن كيف نتعامل مع هكذا مولى؟! خالقنا.. ومالكنا.. ومفيض نعمة الوجود علينا وله من في السموات والأرض.. ومع ذلك يجعل لنا حقوقاً عليه.. ويقول: إذا عصيت أيها الإنسان فلك حق التوبة والمغفرة.. ونبدل سيئاتك حسنات..

إننا لو أدركنا ذلك حقيقة.. وعرفنا عظمة هذا المولى سوف نطيعه حتى في الاحتمال من الناحية العقلية.. وسوف يكون تعاملنا معه بأعلى درجات الالتزام وأشدّ مستويات الأدب..

أما إذا كان تعامل الإنسان على أساس قاعدة: إني أعصي وأذنب ثم أتوب.. لأن الله تواب.. فهذا عمل قبيح تجاه المولى الحقيقي عز اسمه، لأنه مكر وخديعة.. والله سبحانه وتعالى يعبّر

عن نفسه في مثل هذه الحالات أنه خير الماكرين.. لأنه سبحانه فتح باب التوبة والمغفرة رحمة بك ولكي تتقرب إليه.. وأنت في مثل هذا التفكير أيها الإنسان تبتعد عنه بالذنوب والمعاصي، وعليه فإن الإشكال المذكور وهو أن باب التوبة يؤدي إلى الإغراء بالمعصية ليس صحيحاً من أصله.





المبحث السابع

● البحث في آيات التوبة

تقدم الكلام في البحوث السابقة عن حقيقة التوبة من الناحية القرآنية والأخلاقية والعقائدية وبينا مدى ارتباط بحث التوبة الأسماء الإلهية مع التعرض لبعض شروط التوبة.

ونحاول في هذا البحث أن نسلط الضوء على مجموعة من الآيات القرآنية التي تعرضت لذكر التوبة بالمقدار الذي يتّسع له الوقت في هذه المحاضرات، إذ أن هناك مجموعة من الآيات التي يوجد في كل منها حيثية مختصة ببحث التوبة تختلف عن الحيثية الموجودة في الآية الأخرى، ومن خلال الوقوف على مجموع هذه الحيثيات سوف نحصل على تصور شامل وموضوعي عن حقيقة التوبة التي يتكلم عنها القرآن.

ولا يخفى أن أول الآيات المتصدرة في هذا البحث هما الآيتان (١٧ و١٨) من سورة النساء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً

﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾(١).

وتعتبر هاتان الآيتان من الآيات التأسيسية لبحث التوبة، كما يعبر عن ذلك العلامة الطباطبائي قدس سره حيث يقول: وهاتان الآيتان متضمنتان لمعنى مستقل في نفسه وهو إحدى الحقائق العالية الإسلامية والتعاليم الراقية القرآنية وهي حقيقة التوبة وشأنها وحكمها.

وفيهما عدة جهات للبحث نذكرها إن شاء الله تباعاً.

● الجهة الأولى: توبة الله على عبده

قلنا في مستهل البحث أن حقيقة التوبة والرجوع إلى الله متقوّم بثلاث توبات أو رجوعات، توبة من الله على العبد، وتوبة من العبد لله، ثم توبة أخرى من الله على العبد، وفي خصوص هاتين الآيتين الكريمتين لا بد أن نسأل: هل هما تتحدثان عن توبة الله على العبد، أم عن توبة العبد لله؟

والجواب: أن الظاهر من الآيتين أنهما تتحدثان عن التوبة الأولى وهي توبة الله على العبد وليس عن التوبة الثانية.. لأنها

---

(١) النساء: ١٧-١٨.

تقول: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾.. أي أن التوبة والرجوع الثابت على الله هو المقصود من الكلام.. بمعنى أن الله سبحانه هو الذي يتوب ويرجع على عباده الذين يعملون السوء بجهالة، ولذا أكدت بعد ذلك : ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾.

● **الجهة الثانية: معنى الوجوب (على الله)**

يمكن أن يقال بناءً على الاستظهار الأولي من قوله: ﴿عَلَى اللهِ﴾ أن هناك وجوباً ثابتاً على الله سبحانه في توبته على عبده.. وذلك بالاستناد إلى أن حرف (على) يأتي بمعنى الاستعلاء. كما يقول البائع للمشتري مثلاً: عليك أن تدفع الثمن.. أي يجب عليك دفع الثمن.. وعليه لا بد من بيان حقيقة هذا الوجوب.

إن هذا الوجوب أيها الإخوة ليس وجوباً ناشئاً من عقل أو عرف أو أي شيء آخر.. وإنما هو وجوب ناشئ من الوعد الإلهي في توبة الله على عباده.. وهو ما عبرنا عنه في محاضرات سابقة بـ (الوجوب عنه) لا (الوجوب عليه) أي أنه هو كتب على نفسه الرحمة أن من عمل السوء بجهالة سوف يتوب الله عليه ويغفر له.. والله سبحانه لا يخلف الميعاد ومن هنا عبرت الآية الكريمة بـ ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾..

يشير العلامة الطباطبائي قدس سره لهذه الحقيقة بقوله: (ولما كان

نجاح التوبة إنما هو لوعد وعده الله عباده فأوجبها بحسبه على نفسه لهم، قال هاهنا: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ فيجب عليه تعالى قبول التوبة لعباده، لكن لا على أن لغيره أن يوجب عليه شيئاً أو يكلفه بتكليف سواء سمي ذلك الغير بالعقل، أو نفس الأمر أو الواقع أو الحق أو شيئاً آخر، تعالى عن ذلك وتقدس، بل على أنه تعالى وعد عباده أن يقبل توبة التائب منهم وهو لا يخلف الميعاد، فهذا معنى وجوب قبول التوبة على الله فيما يجب، وهو أيضاً معنى وجوب كل ما يجب على الله من الفعل)[1].

أي في جميع بحوث علم الكلام إذا سمعنا عبارة (يجب على الله) فإن المقصود منها الوجوب بمقتضى الوعد الذي كتبه الله على نفسه وليس الوجوب العقلي أو غيره.

● **الجهة الثالثة: في معنى السوء والجهالة**

السوء هو كل فعل قبيح، وقد سميت الأعمال القبيحة سيئات لأنها تسيء لفاعلها وللمجتمع والآخرين.

وأما (الجهالة) فهو مصطلح قرآني دارت عليه أبحاث مهمة قرآنياً وأخلاقياً وحتى أصولياً، إذ يبحث علماء أصول

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٤ ص٢٤٥.

الفقه هذا المصطلح بشكل موسّع في مبحث حجية خبر الواحد، عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1].

وأما في بحث التوبة فإن معنى (الجهالة) له دور كبير في تحديد معنى التوبة والذنوب القابلة لها.

● الفرق بين الجهل والجهالة

هناك فرق كبير بين معنى (الجهل) ومعنى (الجهالة)، فالجهل هو ما يقابل العلم، أي هو عدم العلم.. فتارة يكون الإنسان عالماً بالشيء، وأخرى يكون جاهلاً به .. أي عدم وجود أي صورة أو إدراك للشيء عند الإنسان.

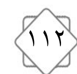
أما الجهالة فهي ليست عدم العلم.. وإنما يمكن أن تتحقق الجهالة عند الإنسان حتى مع وجود العلم. وهذا ما يحتاج إلى شيء من التوضيح:

الإنسان الذي يرتكب المعصية كالكذب والغيبة مثلاً مع علمه بحرمتها شرعاً وأنها من الكبائر التي يعاقب عليها.. إن مثل هذه الحالة تسمى (جهالة) وهي تقترب من معنى السفاهة والشطط.. أي أن هذا الإنسان الذي يعلم بالمعصية وقبحها

(١) الحجرات: ٦.

ويعلم أن الله سبحانه حرمها وسوف يعاقب على ارتكابها ومع ذلك يرتكبها.. يكون في لحظة المعصية مغلوباً للشهوة والنفس الأمارة بالسوء والغفلة عن ذلك العلم بحرمتها بالرغم من أنه عالم بالحرمة.. وسبب هذه الغفلة عن العلم المذكور هو شدة الغفلة عن عواقب هذا الفعل.. فيوصف عند ذلك بالجهالة.. أي كيف يرمي الإنسان نفسه بهذا الضرر مع علمه بأنه ضرر وهلاك ويتبعه عقاب إلهي؟!!

ومن هنا نعلم الفرق بين الجهل والجهالة.. إذ أن الإنسان الذي يرتكب المعصية أو الفعل المحرم جهلاً لا نتصور في حقه التوبة لأنه ليس عاصياً حالة جهله حتى نطلب منه التوبة.. بل هو غير عالم أصلاً بالحرمة المترتبة على فعله.. ولكن هناك من يعمل السوء بجهالة وليس بجهل.. وحالة الجهالة هي التي تتحدث عنها آيات التوبة ولا تتحدث عن حالة الجهل الذي هو عدم العلم أصلاً.. ولمزيد من التوضيح يبين العلامة الطباطبائي قدس سره حقيقة الجهالة بقوله: (الجهل يقابل العلم بحسب الذات غير أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم أنهم يعملون كلاً من أعمالهم الجارية عن علم وإرادة.. وأن الإرادة إنما تكون عن حبّ ما، وشوق ما، - بالتأكيد لأنه لا يمكن أن



يصدر الفعل من الإنسان المختار بدون إرادة وحبّ وشوق لـه- سواء كان الفعل ممـا ينبغـي أن يفعـل بحـسب نظـر العقـلاء في المجتمع - أي الفعـل الحـسن- أو ممـا لا ينبغـي أن يفعـل - أي الفعل القبيح- وهذه قواعد ثابتة في الحياة العقلائية.

لكن من له عقـل مميّـز في المجتمـع عنـدهم لا يُقـدم عـلى السيئة المذمومة عند العقلاء، ولهذا السبب أذعنوا بأن من اقترف هذه السيئات المذمومة لهوى نفساني وداعيـة شـهوية أو غـضبية خفي عليه وجه العلم بقبح هذا الفعل وغاب عنـه عقلـه المميّـز الحاكم في الحسن والقبيح والممدوح والمذموم، وظهر عليه الهوى وعندئذٍ يسمى حاله في علمه وإرادتـه (جهالـة))[1] - في عـرف العقلاء- هـذا في الحيـاة العقلائيـة عنـدما يـصدر مـن الإنـسان الأفعال القبيحة كالظلم والخيانة مثلاً تسيطر الشهوة والهوى على الإنسان فتحجب علمه وتجعله في حالة الجهالة.. وكذلك الحـال في الحياة الإيمانيـة والعلاقـة بـالله عـز وجـل.. فالإنـسان الـذي يرتكب المحرم كالغيبة والكذب يعلم بأن الله سبحانه وتعالى قـد حرّمهما ومع ذلك يصدر منه هذا الفعل.. وعند تحليل هذه الحالة نجد أن النفس تعلم أن هذا الفعل لا يرضي الله سـبحانه.. ومـع

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٤ ص٢٤٦.

ذلك يصدر منها وهذا يعني أن هنـاك محبّـة وشـوق وإرادة لهـذا الفعل حسب القواعـد العقليـة والعقلائيـة التـي تفـسّر صـدور الفعل مـن الفاعـل المختـار.. وهنـا نـسأل: كيـف تولّـد الحـب والشوق والإرادة لهذا الفعل القبيح؟ مع علم الـنفس المؤمنـة أن ذلك مبغوض عند الله سبحانه؟ وأين ذهب هـذا الإيـمان لحظـة ارتكاب الفعل؟

إن الشهوة والهـوى النفـساني المنحـرف هـو الـذي غطّـى وحجب قبح الفعل وحرمته أمـام الإنـسان الفاعـل.. لأن هـذا القبح لو بقى مكشوفاً ومعلوماً للنفس لا تُقدم على ارتكابـه ولا يتولد عندها شوق وحب وإرادة لفعله.. ولتقريب ذلك: لو كان هناك حقل ألغام مكشوف فإن الإنسان العاقل لا يمكن أن يفكر باقتحامه والدخول إليه فـضلاً عـن دخولـه فعـلاً! لأن الـضرر والهلاك مكـشوف بنـسبة مائـة بالمائـة ولا يتولـد عنـده إرادة أو عزيمة لهكذا فعل.. وعليه فما دام قـبح الفعـل مكـشوفاً للـنفس بهذه الدرجة فلا يمكن أن يتولـد عنـدها حـب وإرادة وعزيمـة لارتكابه، بل تُقدم عليه عندما يخفى عليهـا وجـه العلـم بـسبب الهوى النفساني والداعية الشهوية.. أي أنها تدخل حقل الألغـام – ألغام المعاصي– لأن الهوى والشهوة غطّى هذه الألغام وغلب

العقل، فتدخل النفس في هذا الحقل غير ملتفتة للهلاك الذي ينتظرها.. وهذه هي الجهالة.. وإن كان بالنظر الدقيق فلسفياً وعقلياً نجد أن هذا الإنسان لديه علم وصورة ذهنية عن القبح، لكن ما دام هذا العلم لم يؤثر في ردعه عن الفعل القبيح أُلحقَ بالعدم، كأنه لا علم له، فسمّيت هذه الحالة جهالة، حتى إن العقلاء يسمون الإنسان الشاب الحدث (جاهلاً) لأنه قليل التجربة في الحياة.. بالرغم من أنه يملك العلم بالحسن والقبيح ولكن يسمونه جاهلاً بسبب غلبة الشهوة وظهور العواطف والإحساسات في نفسه وغلبتها للعلم الذي عنده، وهو بذلك يختلف عن الإنسان الكبير الذي لديه رزانة وحكمة وسيطرة على عواطفه وأهوائه.. هل فكّر أحدٌ منا بتناول السمّ في يوم من الأيام؟! بالطبع كلّا، والسبب في ذلك أن ضرر السم وأنه مهلك مكشوف للنفس مائة بالمائة فلا تفكر في الإقدام على تناوله!! وهكذا لو كانت جهنم والعذاب وقبح المعصية مكشوفاً للإنسان بهذه الدرجة فلا يمكن أن يرتكبه.. وهذا ما يعبّر عنه القرآن بعمى القلوب.. وأن يكون الهوى هو الإله الذي تطيعه النفس: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

---

(١) الحج: ٤٦.

فحالة ارتكاب الذنب بسبب غلبة الشهوة وهوى النفس هي التي تكون موضوعاً لبحث التوبة وهي الجهالة تمييزاً لها عن حالات أخرى للمعصية ليست مقصودة في بحث التوبة وهو ما سنبحثه في الفقرة اللاحقة.

ومن هنا يظهر أن الجهالة في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوى وظهور الشهوة والغضب من غير عناد مع الحق، ومن خواص هذا الفعل الصادر عن جهالة أنه إذا سكنت ثورة القوى وخمد لهيب الشهوة أو الغضب باقتراف للسيئة، أو بحلول مانع أو بمرور زمان أو ضعف القوى بشيب أو مزاج عاد الإنسان إلى العلم وزالت الجهالة، وبانت الندامة)[1].

• الفرق بين الجهالة وبين خبث الذات ورداءة الفطرة

إن صدور الذنب وارتكاب المعصية من الإنسان له منشآن:

أحدهما: وهو ما عبّرنا عنه فيما سبق بـ (الجهالة)، وهو الذنب الناشئ من غلبة الشهوة وسيطرة الهوى والغفلة على نفس المذنب، وهذا يعني أنه لا يرتكب الذنب عناداً واستعلاءً على الله عز وجل، بل السبب هو الغلبة المذكورة.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٤، ص٢٤٦.

ثانيهما: وهو المهم في هذه الفقرة من البحث، وهو أن يصدر الذنب من الإنسان بسبب خبث الذات ورداءة الفطرة، وليس بسبب غلبة الشهوة والهوى، ولعل هذا المنشأ لصدور المعصية نادر أو قليل لكنه موجود، وبيانه: أن يصل الإنسان – والعياذ بالله– إلى مستوى بحيث يحصل لديه خبث ذاتي باطني.. وليس خبثاً عرضياً باللغة الفلسفية. أي يصل الفساد إلى عمق فطرته.

فالفطرة التي أودعها الله سبحانه عند الإنسان وجعلها حاكماً في شؤون حياته تارة يغطيها تراب الذنوب وظلمة المعاصي لكنها سليمة في داخلها وجوهرها.. أي يحصل عليها رين وحجاب الشهوات كما يعبر القرآن عن ذلك: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[1] وإذا تحقق هذا الرّين والحجاب سوف تكون الغلبة للشهوات وينتصر الهوى وجنوده على جنود العقل.. ثم تصدر المعصية من الإنسان.. وتارة أخرى يصل التلوث والخبث إلى نفس الفطرة.. أي يتعمق الفساد والانحراف والظلمانية في جوهر الفطرة فتخبث الذات والنفس الإنسانية ويختم القلب – والعياذ بالله– فتصبح الذات بنفسها رديئة وليس أفعالها رديئة..

---

(١) المطففين: ١٤.

بل هي رديئة خبيثة.. وهذه من أخطر الحالات والأمراض الفتاكة في مسيرة التكامل الإنساني.. والإنسان الذي يصاب بمثل هذه الحالة يكون من الصعب والمتعذّر عليه الرجوع إلى طريق الصلاح والتقوى لأنه سوف يحتاج إلى عملية إصلاح معمقة ومعقدة وأدوات قاسية وشديدة لكي يتم قلع هذا الفساد الذي أصاب فطرته، وعندما تصدر السيئة والمعصية من الإنسان في مثل هذه الحالة لا يسمى جاهلاً أو فيه جهالة، بل يسمى معانداً متمرداً على الله سبحانه.. ولذلك يعتبر العناد والتمرُّد هادماً لأعمال الإنسان لأنه ينبع من شرّانية الذات وخبثها.. ومن هنا تجد الناس الذين هم على هذه الحالة يعملون القبيح ولا يندمون ولا يتأسفون ولا يعتذرون ولا يرتدعون بل نراهم يدافعون عن أفعالهم القبيحة ويبررونها بأي وجه بالرغم من أن الفعل الذي صدر عنهم يكون في أعلى درجات القبح والسوء! وهذا بخلاف الإنسان الذي تصدر عنه المعصية بسبب (الجهالة) إذ نراه يرتكب المعصية وسرعان ما يصيبه الندم والإنابة.. وتحصل عنده حالة التأمُّل أو الاستغفار.. وهذا يعني أن المعصية والذنب غير متأصّل في ذاته وإنما هو حالة عرضت له بسبب غلبة الشهوة والهوى كما قلنا.

ويؤكد المحققون أن كل معصية هي جهالة من الإنسان، وعلى هذا لا يبقى للمعاند والمتمرد مصداق.. أي أن حالة خبث الذات هي من الحالات النادرة التي تصيب نفس الإنسان الذي لا يرجع عن سوء عمله ولا يندم عليه إلى آخر عهده بالحياة، لأن هذه الحالة خارجة عن موضوع التوبة تماماً، وأن التوبة ستكون مختصة بأصحاب (الجهالة) لا غير.

يعبر السيد الشهيد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ عن حالة خبث الذات بصياغة معنوية وأخلاقية أخرى ذكرها في كتاب (فقه الأخلاق) عند حديثه عن النجاسات، حيث يؤكد أن الإنسان إذا وصل إلى درجة خبث الذات سيكون عين نجاسة غير قابلة للتطهير ما دامت ذاته موجودة، وأما الإنسان الذي يرتكب الذنوب ولم يصل إلى هذه الدرجة فهو (متنجس) قابل للتطهير والتوبة.

يقول قُدِّسَ سِرُّهُ: (الفرد نفسه وبذاته قد يصبح (عين نجاسة)، فإن خصوصية ذلك بشكل رئيسي هو عدم قابليتها للتطهير ما دامت ذاته محفوظة، وإنما الجسم يكون قابلاً للتطهير بعد زوال العين النجس.

فإذا وصل الفرد إلى درجة لا يكون معها قابلاً للتوبة

والعودة إلى الهدى أو التطهير، فقد أصبح (عين نجاسة) ولا يكون قابلاً للطهارة ما دامت ذاته محفوظة، كما قلنا، أو قل: ما لم تتغير ذاته، وهيهات.

وهذا لا يعني انسداد باب التوبة عليه، ولكنه يعني عدم استحقاقه للتوبة، وأن شكله ومستواه العقلي والنفسي من الانحدار بحيث لا يكون قابلاً للصعود، وقد عبروا في بعض الأخبار الواردة عن أشباه ذلك أنه: داء لا دواء له.

ومن تطبيقاته في القرآن الكريم من يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1]، أو من يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[2]، أو من يقول لوالديه: ﴿أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾[3].

هذا، ولكن الإنسان في درجات أقل من التطرُّف نحو الباطل يكون قابلاً للهداية بصعوبة أو بسهولة. هذا، لأنه كان (متنجساً) ولم يكن عين نجاسة. والخصيصة الرئيسية للمتنجس قابليته للتطهير مع حفظ ذاته، بخلاف عين النجاسة كما عرفنا.

---

(١) النازعات: ٢٤.

(٢) القصص: ٧٨.

(٣) الأحقاف: ١٧.

والتطهير المعنوي يكون بالهداية والتوبة والرجوع إلى الحق.

كل ما في الأمر أن بعض النجاسات أبطأ طهارة من بعض أو أصعب، وهذا على غرار ما ورد من أن بعض النجاسات تطهر بإراقة الماء عليها مرتين، وبعضها لا تطهر إلا بسبع مرات، وبعضها إلا بالفرك بالتراب)[1].

ويعبر السيد عبد الله شبر عن حالة خبث الذات أيضاً بصياغة أخلاقية أخرى نقلاً عن إحياء العلوم للغزالي نذكرها تتميماً للبحث مع بعض التوضيحات: (اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله.. ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله، وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل، فكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها.

وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة وأن نور الحسنة تمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات.. فكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن

---

(١) فقه الأخلاق، الشهيد السعيد السيد محمد الصدر، ج١، ص١٥٧-١٥٨.

يكون لبسه، فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم تنظفه وتطهره وتزكيه.

وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول - بالرجوع إلى الله سبحانه لأنه مرتبط بأصله الطاهر - فعلى الإنسان التزكية والتطهير وعلى الله القبول، إلا أن يغوص الوسخ - وهنا محل الشاهد- لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله، فلا يقوى الصابون على قلعه، ومثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى يصير طبعاً وريناً على القلب، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب!

نعم قد يقول باللسان: تبت، فيكون ذلك كقول القصّار بلسانه: غسلت الثوب! وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن منه)[1].

• الجهالة في كلام أهل البيت

ورد في تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

(١) الأخلاق: السيد عبد الله شبر، ص٢٤٦.

السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾[1] قال: (يعني كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً به فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه، وقد قال في ذلك يحكي قول يوسف لإخوته: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[2] فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله).

وفي هذه الرواية شاهدان مرتبطان بمحل البحث:

الشاهد الأول: قوله عليه السلام: عمله العبد وإن كان عالماً به فهو جاهل خاطر بنفسه في معصية ربه. فقد وصفه الإمام عليه السلام بالجهل بالرغم من أنه عالم بالذنب وعمل به، وهذه هي حالة الجهالة التي نتكلم عنها.. ثم يقول أنه خاطر بنفسه.. أي أنه لو كان ملتفتاً فعلاً للعواقب الحقيقية للذنب وتكون منكشفة له انكشافاً تاماً فإنه لا يُقدِم على هذه المعصية.. وإذا أردنا تحليل حال الإنسان عند ارتكابه الذنب فنجد أن النفس الأمارة بالسوء والشهوة والهوى إضافة إلى وسوسة الشيطان.. أن كل هذه الأمور تصنع حجاباً بين الإنسان المذنب وبين العواقب الوخيمة المترتبة على ذنبه.. فلو فكر قليلاً بالغضب والسخط الإلهي

---

(١) النساء: ١٧.

(٢) يوسف: ٨٩.

والبُعد عن دار الكمال والطاعة لما اقتحم هذا الذنب.. نعم، الإنسان المذنب يعلم أنه سيعصي الله سبحانه ويخالف تكاليفه لكنه في لحظة المعصية يغفل وتغيب عنه هذه العواقب.. فيكون جاهلاً مخاطراً بنفسه كالشخص الذي يدخل نفسه في حقل الألغام .. مع العلم أن معصية الله أشنع وأكثر سوءاً وضرراً من حقل الألغام الحقيقي.. إذ أن المعصية والذنب تجعل الإنسان في دار البوار والظلمانية والشقاء الحقيقي.

الشاهد الثاني: قولهعليه السلام في حق إخوة يوسفعليه السلام: فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله.

أي أن يوسف عليه السلام وصف إخوته بالجهل حين ارتكبوا هذا الذنب بالرغم من أنهم عالمون أن الفعل الذي قاموا به مع أخيهم قبيح لا يرضي الله سبحانه.. فهم كانوا يعلمون أنه نبي ابن نبي!! وأنه أخوهم.. وهم أولاد أنبياء! فكيف سوّلت لهم أنفسهم وقالوا: اقتلوا يوسف أو أطرحوه أرضاً!! أو نجعله في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة!! فهم خاطروا بأنفسهم بارتكابهم هذا الفعل الشنيع.. وقد وصفهمعليه السلام: أنهم جاهلون.. أي أن وسوسة النفس والشيطان والهوى حجب عنهم هذا العلم فوقعوا في المعصية فهم جاهلون..

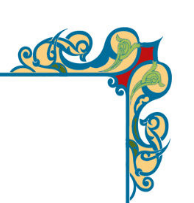
ومن مجموع ذلك كله يتضح أن الإنسان في حالة المعصية يخاطر بنفسه ويرتكب الجهالة وهي نوع من السّفه والانحراف والشطط.. ومن هنا قلنا أن المعصوم عليه السلام لا يبتلى بمثل هذه الحالة لعدم غلبة الهوى والشهوة والشيطان والنفس الأمارة بالسوء.. فلا يحصل عنده حجاب عن عواقب المعاصي وقبحها فلا يفكر بالمعصية فضلاً عن أن تصدر منه فعلاً.

وهناك شاهد آخر في سورة يوسف مرتبط ببحث الجهالة أيضاً، وهو قوله: ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[1] فالصبو للنساء والانسياق وراء الهوى والشهوة يصفه عليه السلام: أنه إذا فعل ذلك يكون من الجاهلين.. مع أنه عالم بأن ذلك معصية لله سبحانه.. ويؤكد ذلك مضمون الحديث الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام: (رُبّ عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه) وهو يؤكد معنى الجهالة الذي تقدم بيانه.

إذن القيد الأول الذي تبينه الآية الكريمة في قبول التوبة هو أن يكون الذنب صادراً عن جهالة، وليس عن عناد أو استعلاء أو تمرُّد على الله سبحانه.

---

(١) يوسف: ٣٣.



المبحث الثامن

● **الجهة الرابعة**: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾

يبين هذا المقطع من الآية الكريمة شرطاً آخر من شروط قبول التوبة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، وللمفسرين آراء متعددة ومختلفة في المقصود منها، لكن المحصل من تلك الآراء هو أن الإنسان المذنب لا بد أن يتوب قبل ظهور أمارات الموت عليه وقبل ظهور علامات الآخرة.. باعتبار أن الدنيا هي دار الاختيار والتكليف والطاعة والمعصية، فالإنسان ما دام في هذه الحياة فهو مشمول بقوانين النشأة الدنيوية ولديه الاختيار الذي هو أحد الأركان التي تستند إليها التكاليف الإلهية، فتكون توبته مقبولة، وبتعبير القرآن: ﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي لا يؤجلونها إلى ظهور أمارات الموت وعلاماته.

أما إذا ظهرت أمارات الموت وانكشفت له النشأة الأخرى وصار آيساً من الرجوع إلى نشأة الدنيا فلا تُقبل توبته حسب هذا القيد الذي تذكره الآية الكريمة، بل يمكن القول أن توبته حينئذ تكون نوعاً من أنواع الحيلة لأن نفسه عندما ينكشف لها الجزاء

السيّئ وأهوال العاقبة وشدة العالم الذي هي متجهة له والإشراف على دخول ظلمات البرزخ بالنسبة للإنسان المذنب سوف تتيقن النفس أنه خارج من عالم الدنيا لا محالة ومُقبل على عالم الآخرة.. فلو أراد أن يتوب فإن توبته حينئذ ناشئة بسبب رؤية الضرر والهلاك الذي سيصيبه بسبب الأعمال السيئة والمعاصي التي كان يفعلها في الدنيا.. وبسبب هذا اليقين بالهلاك والضرر سوف تحصل في نفسه حالة الندم والتوبة.. لكنها ليست توبة ورجوعاً إلى الله سبحانه حقيقة، ولذلك لمجرد أن يزول اليقين بالضرر والهلاك الذي سيصيب النفس لوجود مانع ما سوف يرجع هذا الإنسان إلى المعصية والذنب من جديد.. ويمكن التعبير عن ذلك بأنه مكر وخداع تكويني سببه الخوف من الهلاك والحفاظ على النفس وليس سببه الرجوع والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى الذي يمثل جوهر التوبة المقبولة.

يعبّر القرآن عن مثل هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾[1]. والآية وإن كانت تتحدث عن حالة الكافرين والمذنبين يوم القيامة.. لكننا يمكن أن نطبقها على حالة الشخص الذي رأى أمارات الموت وأشرف على عالم الآخرة.

---

(١) الأنعام: ٢٨.

ثم إنه سبحانه ختم قوله: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ**﴾ بقوله: ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ ولم يقل: وكان الله غفوراً رحيماً! إذ كان من المتوقع أن يختم بالمغفرة والرحمة لأن الآية تتحدث عن التوبة، فما هي علاقة ﴿**اللهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ بحقيقة التوبة؟

والجواب: أن الله سبحانه وتعالى عليم بنوايا الإنسان وما تنطوي عليه نفسه.. فإذا كان الإنسان ناوياً التوبة والرجوع إلى الله سبحانه حقيقة فباب التوبة مفتوح للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون إلى الله من قريب لأن الله (عليم)! شرّع التوبة لعباده في مثل هذه الحالات.. إذ يعلم من عباده أنه قد تغلبهم الشهوات والأهواء والنفس الأمارة ووسوسة الشيطان ففتح لهم باب التوبة ضمن النظام التكويني الأحسن، وقد بيّنّا ذلك في مستهل البحث وذكرنا أن التوبة حقيقة قرآنية وقاعدة ضمن النظام الوجودي الذي خلق عليه هذا العالم.

وأما الصفة الثانية فهي (حكيم) أي أنه يضع الشيء في موضعه الصحيح.. فهو سبحانه لا يخلقنا في عالم الشهوات والملذات والأهواء والمزالق من دون أن يمد لنا يد العون والتوفيق والرحمة.. ومن دون أن يفتح لنا باب التوبة والإنابة..

كلا بل هو حكيم وضع التوبة في موضعها الصحيح للذين يعملون السوء بجهالة ويتوبون من قريب! أما إذا كان الذنب صادراً بإصرار وعناد وتمرُّد واستعلاء على الله سبحانه إلى أن يأتي الموت ويرى الإنسان علامات الآخرة والهلاك الحقيقي.. فهذا ليس من التوبة في شيء.. لأن التوبة رجوع اختياري من العبد إلى ربه عز وجل ولا معنى لذلك إلا في الحياة الدنيا التي هي ظرف الاختيار وموطن الطاعة ودار التكليف ومع طلوع آيات الموت على الإنسان لا يوجد اختيار، قال تعالى في سورة المؤمن: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

تؤكد هذه الآيات الكريمة أن حالة (رؤية بأس الله) تنتفي فيها حالة الاختيار عند الإنسان ولا يقبل منه الإيمان حينئذ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.. وفي هذا المجال أيضاً هناك آيات في سورة (الملك) مرتبطة بهذا الموضوع نتأمل فيها سوية لكي تتضح لنا الصورة الكاملة للإنسان الذي يريد أن يتوب بعد طلوع أمارات الموت والآخرة عليه.. وبالرغم من أن مضمون

(١) غافر: ٨٤-٨٥.

هذه الآيات يتحدث عن أحوال الآخرة والمعذبين في نار جهنم لكننا نريد أن نقرب حالة الإنسان عندما يكون في زاوية ضيقة تنتفي عندها حالة الاختيار لديه.

قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ* تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ* قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ - هذا القول إما لخزان جهنم يقولون لأفواج المعذبين أنكم في ضلال كبير، أو هو قول المعذبين أنفسهم للرسل أنكم في ضلال كبير، فهناك خلاف بين المفسرين في ذلك- وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1] هل هذا يعني أنهم في الدنيا كانوا لا يسمعون ومجانين بلا عقل؟!! كلا، بل كانوا يسمعون وأصحاب عقل، لكن بعد وصولهم إلى نار جهنم ورؤية أهوالها وعذابها نفوا عن أنفسهم السمع والعقل، وهنا ملاحظة أخرى وهي أن انتفاء الإيمان يعني انتفاء العقل بناء على قولهم هذا، لأنهم يقولون ذلك في العالم الآخر وهي إقرارات واقعية.. فالسمع والبصر والعقل الحقيقي هو الذي يؤدي إلى الإيمان والسعادة الحقيقية.. ثم يقول تعالى:

---

(١) الملك: ٧-١٠.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾.. ونحن نعلم أن الاعتراف بالذنب في الدنيا يعتبر فضيلة، لكن في الآخرة يكون الجواب: ﴿فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1]!! والسبب أن هذا الاعتراف لا يعتبر فضيلة وذلك لأنه لا يكون عن اختيار بل بسبب عذاب جهنم.. ولذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2].. أما الذي يعترف بالذنب بسبب شدة العذاب فهذا: سحقاً له! والسُّحق معناه تفتيت الشيء.. والإنسان الذي يرى أمارات الموت وعلامات الآخرة يكون حاله حال هؤلاء.. لانتفاء الاختيار وسقوط التكليف حينئذ.

وعليه فلا بد للإنسان أن لا يؤخر التوبة كسلاً وتوانياً ومماطلة لأن ذلك يعتبر خديعة وحيلة وليس رجوعاً حقيقياً لله سبحانه، لأن الإنسان يعلم أن الموت يأتي بغتة وإذا جاء أجله لا يستقدم ساعة ولا يستأخر، فلماذا تأجيل التوبة والمماطلة بها؟!!

• إيمان فرعون وتوبته عند الغرق

من المسائل المطروحة في بحث التوبة والتي لها ارتباط مباشر بموضوع هذا البحث هي حادثة إيمان فرعون عندما

(١) الملك: ١١.

(٢) الملك: ١٢.

أدركه الغرق والهلاك في البحر، والمستفاد من قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ * أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وقد استشكل بعض المفسرين في ردّ إيمان فرعون وتوبته، وقال: إن الآية لا تدل على ردّ توبة فرعون، وليس في القرآن ما يدل على هلاكه الأبدي، وأنه من المستبعد عند من يتأمل سعة رحمة الله وسبقها غضبه، أن يجوّز عليه تعالى أن يرد من التجأ إلى باب رحمته وكرامته متذللاً مستكيناً بالخيبة واليأس، والواحد منا إذا أخذ بالأخلاق الإنسانية الفطرية من الكرم والجود والرحمة ليرحم أمثال هذا الإنسان النادم حقيقة على ما قدم من سوء الفعال، فكيف بمن هو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين وغياث المستغيثين؟ هذا ما ذكره صاحب هذه الشبهة.. بل لعل هذه الشبهة موجودة عند الكثيرين بصياغات أخرى كلها تستند إلى سعة رحمة الله.

والجواب: أن هذه الشبهة مردودة بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتْ

(١) يونس: ٩٠-٩١.

﴿التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾[١] وقد بينّا أن الندامة في مثل هذه الحالات ندامة كاذبة لأن الذي يسوق الإنسان لها هو مشاهدته وبال ذنوبه ونزول البلاء والعقاب.. في حين أن الندامة النافعة في قبول التوبة هي خصوص الندامة على ما فرّط في جنب الله.. والندم على ذنوبه ومعاصيه.. والتي يكون نتيجتها الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى.. ولا يوجد هناك دليل على أن كل ندم فهو توبة وكل توبة فهي مقبولة.. بل هناك دليل على أن بعض الندم لا ينفع صاحبه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾[٢]. وغيرها من الآيات الكثيرة الدالة على حصول ندم المذنبين على ما فعلوا وطلبهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً، ويأتي الرد الإلهي عليهم بأنهم لو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون[٣].

قال العلامة الطباطبائيقُدِّسَ سِرُّه: ومن هنا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي إن عامل السوء بجهالة لا يقيم

(١) النساء: ١٨.

(٢) سبأ: ٣٣.

(٣) ينظر الميزان في تفسير القرآن: ج٤، ص٢٥٤.

عاكفاً على طريقته ملازماً لها مدى حياته من غير رجاء في عدوله إلى التقوى والعمل الصالح، كما يدوم عليه المعاند اللجوج، بل يرجع عن عمله من قريب، فالمراد بالقريب العهد القريب أو الزمان القريب وهو قبل ظهور آيات الآخرة وقدوم الموت.

وكل معاند لجوج في عمله إذا شاهد ما يسوؤه من جزاء عمله ووبال فعله ألزمته نفسه على الندامة والتبرّي من فعله، لكنه بحسب الحقيقة ليس بنادم عن طبعه وهداية فطرته، بل إنما هي حيلة تحتالها نفسه الشريرة للتخلص من وبال الفعل، والدليل عليه إنه إذا اتفق تخلصه من الوبال المخصوص عاد ثانياً ما كان عليه من سيئات الأعمال، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾[1]. وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ**﴾ كناية عن المساهلة المفضية إلى فوت الفرصة.

والجملة يعود المعنى إلى أن الله سبحانه إنما يقبل توبة المذنب العاصي إذا لم يقترف المعصية استكباراً على الله بحيث يبطل منه روح الرجوع والتذلُّل لله، ولم يتساهل ويتسامح في أمر التوبة تساهلاً يؤدي إلى فوت الفرصة بحضور الموت)[2].

---

(١) الأنعام: ٢٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٤، ص٢٤٧.



• **الجهة الخامسة**: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾

هناك تعبيران دقيقان لا بد من الالتفات إليهما في هذه الآية الكريمة.

التعبير الأول: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ﴾ وهو يدل بعد التحليل على أن الإنسان مستهين بأمر التوبة ومستحقر له إلى هذا الحد، أي يعمل ما يشاء ويختار في حياته ما يشاء من دون مبالاة أو اهتمام، وإذا عرض عليه عارض الموت (حضر عنده) يقول: إني تبت الآن! ليدفع مخاطر الذنوب ومهلكة مخالفة الأمر الإلهي بمجرد هذا اللفظ الذي يردده لسانه ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ﴾. وكأن الإنسان مستمر في غفلته وعصيانه وتمرده على الله سبحانه وابتعاده عن طريق الخير والتقوى والعمل الصالح ولا يردعه من ذلك رادع.. لكن إذا حضره الموت يقول بلسانه: تبت!! وهذا دال على الاستهانة بأمر التوبة.. والاستخفاف بأمر الرجوع إلى الله تعالى.

ومن هنا ستظهر دلالة التعبير الثاني وهو:

التعبير الثاني: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ وهو تعبير يحمل دلالات عميقة تبين كوامن نفس هذا القائل وتفضح سريرته التي تنطوي على الحيلة والمخادعة.. ففي الآية الأولى عبّر القرآن

هكذا: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ .. فجاء السوء مفرداً وأنه صدر بجهالة، أما في الآية الثانية فقد اختلف التعبير: ﴿ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، إذ وردت السيئات بصيغة الجمع! وكأنها تريد أن تقول أن صدور السيئات مستمر من هذه الفئة من الناس فلا تقبل توبتهم، أما الآية الأولى فهم الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فهؤلاء تقبل توبتهم.

وهنا يأتي محل الشاهد: في الآية الثانية لم يعبر القرآن ويقول: يتوبون، كما في الآية الأولى، بل قال هكذا: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ !! أي أن القرآن لم يثبت التوبة لهم، بل نقل قولهم فقط، أنظروا للتعبير بدقة: قال إني تبت!! أي أن التوبة منقولة فقط عن لسان هذا القائل.. في حين أنه في الآية الأولى، قال: يتوبون.. فأثبت التوبة لهم حقيقة..

ويظهر الاستهزاء بأمر التوبة والاستهانة بها بصورة أوضح عندما يضيف القرآن قيداً آخر وهو قوله: (الآن): ﴿إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ أي في هذه اللحظة أقول تبتُ، وأما قبلها فكنت مستهيناً ولا أعترف بالتوبة والرجوع إلا في هذه اللحظة التي رأيت فيها أهوال الموت وسوء العاقبة!

فيكون المعنى حينئذ: إني تائب لما شاهدت الموت الحق

والجزاء الحق، وقد قال تعالى في نظيره حاكياً عن المجرمين يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1].

فهذه التوبة لا تقبل من صاحبها لأن اليأس من الحياة الدنيا وهول المطّلع هما اللذان أجبراه على أن يندم على فعله ويعزم على الرجوع إلى ربه، ولات حين رجوع حيث لا حياة دنيوية ولا اختيار في الأعمال[2].

هذا كله من ناحية المعطيات القرآنية حول قبول التوبة في مثل هذه الحالات، وأما من ناحية الروايات والنصوص الواردة في هذا الموضوع فهي على ألسنة مختلفة نذكر بعضاً منها.

• وقت قبول التوبة

اختلفت ألسن الروايات في تحديد ذلك ووردت على مضامين متعددة نحاول هنا التعرض للمهم منها مع التعليق عليه بما ينسجم مع المعطيات القرآنية التي ذكرناها. منها:

ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله في آخر خطبة خطبها: (من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه، ثم قال: إن السنة لكثيرة ومن

---

(١) السجدة: ١٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٤، ص٢٤٩.

تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه، ثم قال: وإن الشهر لكثير ومن تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه، ثم قال: وإن اليوم لكثير ومن تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه، ثم قال: وإن الساعة لكثيرة من تاب وقد بلغت نفسه هذه - وأهوى بيده إلى حلقه- تاب الله عليه)(١).

ويمكن أن نحمل هذه الحالة وهي - بلغت نفسه إلى حلقه- على الوقت الذي يكون قبل معاينة عالم الغيب ويكون قريباً من انقطاع زمان التكليف لكنه متصل به ولو بمقدار قليل.. فتكون التوبة عن اختيار وتكون صحيحة.

ومن هنا يكون حديث الإمام الصادقعليه السلام مبيناً لهذه الرواية، حيث سئلعليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ**﴾ قال: ذلك إذا عاين أمر الآخرة(٢).

فهذه الرواية تفسر الآية وتفسر الروايات الواردة في عدم قبول التوبة عند حضور الموت، بأن المراد من حضور الموت العلم به، ومشاهدة آيات الآخرة ولا توبة عندئذ، وأما الجاهل

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٣٣، الحديث ٣٥١.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٣٣، الحديث ٣٥٢.

بالأمر فلا مانع من قبول توبته لأن الجاهل يكتب له العذر في كثير من الأمور كما هو معلوم في محلّه.

وورد في تفسير العياشي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حنجرته- لم يكن للعالم توبة وكانت للجاهل توبة)[1].

وهذا التفصيل بين العالم والجاهل يؤكد ما قلناه في دلالة الروايات المذكورة.

● ما ذكره صاحب تفسير المنار

لا بأس بالإشارة هنا إلى ما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار حول وقت التوبة المستفاد من قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾. حيث يقول: (إن وجه نفي التوبة عن هؤلاء هو أن هؤلاء الذين نفى ثبوت التوبة لهم ليسوا ممن اقتضت السنن الإلهية في خلق الإنسان وتأثير أعماله في صفات نفسه وملكاتها ثم ترتب أعماله على أخلاقه وملكاته بأن يكونوا ممن يرجع عن السيئات بعد الاستمرار عليها وينخلع عنها ويطهر قلبه ويزكّي نفسه من أدرانها فيكون أهلاً لرحمة الله أن تعطف عليه ومحلاً لاستجلاب نعمه فيعود ما نفر منها

(١) الكافي: ج٢، ص٤٤٠، الحديث ٣.

بالمعاصي إليه، بل مضت سنة الله تعالى في أمثالهم أن تحيط بهم خطاياهم وسيئاتهم فلا تدع للطاعات والحسنات مكاناً من نفوسهم، فيصرون عليها إلى أن يحضر أحدهم الموت وييئس من الحياة التي يتمتع فيها بما كان يتمتع فعند ذلك يقول: إني تبت، وما هو من التائبين، بل من المدعين الكاذبين.

وقال تعالى هناك: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾ فأسند التوبة إليهم، وقال ههنا: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ فبيّن أن واحد هؤلاء يدعي التوبة عند العلم بالعجز عن الذنب أي أن قلبه لم ينخلع من الذنب ونفسه لم ترغب عنه فيكون تائباً، وإنما مثله كمثل رجل كان يعيث في أرض آخر فساداً فظفر به هذا ووضع السيف على عنقه وأراد أن يفصل رأسه عن بدنه، فاستغاث وقال: إنه لا يعود إلى ذلك الإفساد، ولكن نفسه لم تنفر منه ولم تستقبحه لأنه فساد، فهي إذا زال الخوف تعود إلى الدعوة إليه ولا تلقى من صاحبها إلا الطاعة والانقياد)[1].

• ما ذكره صاحب تفسير روح المعاني

أما ما ذكره المحقق الآلوسي في معنى ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ

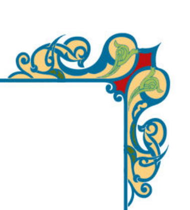
(١) تفسير القرآن الحكيم، تأليف الأستاذ محمد رشيد رضا، ج٤، ص٣٦٦.



الْمَوْتُ﴾ فيقول:

(بأن شاهد الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال وعاين ملك الموت وانقطع حبل الرجاء ﴿إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ أي هذا الوقت الحاضر، وإيثار (قال) على (تاب) لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشي عن تسميته توبة، ولو أكده ورغب فيه، ولعل ذلك كون تلك الحالة أشبه شيء بالآخرة بل هي أول منزل من منازلها، والدنيا دار عمل ولا جزاء، والآخرة دار جزاء ولا عمل)[1].

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي البغدادي، ج٤، ص٢٨٧.



المبحث التاسع

• الفطرة الإنسانية سماوية الأصل (تحقيق في معنى الرجوع إلى الله)

إن قبول التوبة وعدم قبولها مرتبط ارتباطاً مباشراً بمعرفة حقيقة التوبة والوقوف عليها كحقيقة دينية وقرآنية ذات جوهر ومعطيات محددة.. وقد ذكرنا سابقاً أن هناك علاقة تكوينية مباشرة بين حقيقة الفطرة الإنسانية وبين حقيقة الرجوع إلى الله سبحانه.. فإن تحقق معنى (الرجوع) سيستلزم أمراً مهماً آخراً وهو أن الإنسان (جاء من الله) لكي يصدق عليه (الرجوع إلى الله).. فعندما نقول مثلاً: رجعت إلى مدينة النجف، فهذا يعني أنني كنت فيها سابقاً ثم خرجت منها والآن رجعت إليها.. وإلا فإن الشخص الذي لم يكن في النجف ولم يدخلها سابقاً لا يقال عنه أنه (رجع) إلى النجف.. بل يقال جاء إليها.. أو ذهب إليها.. وعليه فعندما نفسّر التوبة بـ(الرجوع إلى الله) فهذا معناه أننا قادمون من جهة إلهية وبالتوبة نرجع ونعود إليها.. وهذا الأمر يؤكد أن حقيقة الإنسان مصدرها (سماوي) (إلهي) وأن الإنسان

إذا أراد التوبة والرجوع إلى أصلهِ السماوي ومنشأه النوراني لا بد أن تكون هناك جهة أو حيثية معينة في جوهره تستطيع الارتباط بذلك العالم السماوي الإلهي لكي يتحقق رجوعها كما تحقق مجيئها منه في مرحلة سابقة.. بل نستطيع القول أن جميع المعارف الدينية ومنها التوبة وجميع الشرائع السماوية والأديان والنبوة والإمامة والأحكام الشرعية تترتب بشكل أساسي وجوهري على هذه الحقيقة، وهي: أن أصل الإنسان وحقيقته سماوية وإنما هبط إلى هذا العالم وجاء إلى نشأة الدنيا لأسباب ذكرناها في بحوث سابقة.. وقلنا أن خطاب ﴿**اهْبِطُوا مِنْهَا**﴾[1] جعلنا نهبط من العالم السماوي الأعلى إلى العالم الأرضي الدنيوي، وضمن هذه المعادلة التكوينية والمسيرة الوجودية لا بد أن نفهم مسيرة الرجوع إلى الله سبحانه.. بل إن مبحث النبوة وحقيقة بعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام تدور على حقيقة واحدة خالصة. إنك أيها الإنسان لم تخلق للبقاء في هذا العالم بل لا بد عليك من الرجوع والعودة إلى عالمك الأصلي.. وهذا الرجوع إما يتحقق اختياراً بالتوبة والإنابة.. أو يتحقق بالاضطرار والموت فإن كل من عليها فانٍ.. وإنا لله وإنا إليه راجعون..

---

(١) البقرة:٣٨.

نعم .. عندما وصل الإنسان إلى عالم الدنيا وأراد الرجوع فاحتاج إلى الرسالات الإلهية التي تبيّن له خريطة مسيرة الرجوع من خلال عقائد وأخلاق وأحكام وشرائع محددة ومعينة.

وفي هذه النقطة نسأل: إذا كانت التوبة بمعنى الرجوع الاختياري إلى الله، فمتى يمكن للنفس أن ترجع بهذا الرجوع؟

والجواب: إن هذا الرجوع لا يتحقق إلا إذا كانت هناك جهة طهارة ونور في النفس ولو بمقدار ضئيل لكي يتحقق الارتباط والاتصال بمصدرها النوراني الإلهي وكما عبرنا في بحوث سابقة لا بد من وجود الجهة الطيبة الخالية من الخبائث لكي تتوب وترجع وتستغفر وتندم.. لأن الإنسان إذا خبثت ذاته وفسدت فطرته وترشّح الخبث والفساد من الأعمال والصفات إلى الذات سوف تكون توبته ورجوعه إلى الله صعباً جداً، وقد عبّر عنها السيد الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أنها: داء لا دواء له، ومن هنا تؤكد الآية الكريمة: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾! لأن الإنسان في هذه الحالة رديء الفطرة يقوم بالذنب والمعصية تمرداً واستعلاءً على الله سبحانه.. ومثل هذه التوبة لا تقبل منه لأنه ليس رجوعاً حقيقياً إلى الله سبحانه.. بل هي توبة باللسان لتحاشي الهلاك وسوء العاقبة الذي شاهدته النفس

عندما حضرها الموت. إذن هناك علاقة وثيقة وجوهرية بين قبول التوبة ووقت قبولها وبين ما تنطوي عليه فطرة الإنسان من طيب أو خبث. إذ من المستحيل على نفس أو قلب يصل إلى مستوى اليقين الكامل بالدين والرسالة الإلهية وتطمئن نفسه.. وتسكن روحه ويزول منه القلق الوجودي إلا إذا كانت نفسه مرتبطة تكويناً بالرسالة الإلهية.. لأن الرسالة الإلهية مهما نادت الإنسان وقالت له ارجع إلى الله سبحانه.. تُبْ من الذنوب.. التزم بالشريعة وأحكامها وكان الإنسان منقطعاً تماماً عن مصدر هذه الرسالة سوف لا تؤثر فيه أصلاً.. أي لا تحصل عنده درجة اليقين والانكشاف والاطمئنان القلبي والنفسي بها.

إن وصول الإنسان إلى مرحلة اليقين واستقرار النفس الكامل، وسكون الروح، واطمئنان القلب، والخروج من ساحة القلق النفسي والظمأ الوجودي، لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود جهة معينة في حقيقة الإنسان وكينونته يمكنها أن تتماهى أو يكون لها انسجام تكويني مع معطيات الرسالة السماوية.. مثلُ ذلك مثل بذرة النبات التي تدفن في الأرض، فلولا وجود عنصر تكويني في كينونة البذرة يمكنه التماهي والانسجام مع عناصر التربة والماء والهواء لما أمكن لهذه البذرة النمو والوصول إلى

كمالها النباتي، بل ستندثر في أعماق التربة وتتحول إلى كائن آخر لا يمتُّ للنبات بصلة!

بعبارة أخرى إن الرسالة السماوية هي الماء الذي أرسل إلى الإنسان المدفون في مزرعة الدنيا لكي يحيى وينمو ويصل إلى كماله وتورُّق أغصانه وتتدلى ثماره التي تقتضيها عناصر بذرته الإنسانية.

على ضوء هذه الحقيقة يمكن القول: إن (الماء السماوي) أي الدين ليس شيئاً غريباً على جوهر البذرة الإنسانية، فعندما يلتقي بها ضمن الظروف والشروط الصحيحة سوف يبعث فيها الحياة لتنفلق ثم تشق طبقات التربة ثم تنبت ثم تورق ثم تثمر في مسيرة تكاملية نحو مصدرها الإلهي اللامتناهي.

استناداً لذلك ينفتح البحث حول موضوع الفطرة التي تمثل جوهر الحقيقة الإنسانية وبذرتها المحتاجة للماء السماوي.. ومدى علاقة ذلك بموضوع التوبة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى.. ومن هنا يتضح لنا سبب التركيز القرآني على أن أهم وظيفة للأنبياء عليهم السلام هي (التذكير).

قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾[1].

---

(١) الغاشية: ٢١.

وقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾[2].

إذ لا معنى للتذكير إلا أن يكون ثمة شيء كان موجوداً حاضراً وتم نسيانه! وليس هو إلا الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.. وهي التي تمثل جوهر الجهة السماوية في كينونة الإنسان وعلى أساسها يخاطب الإنسان بالرسالة السماوية، ومن بابها يصل إليه النداء الإلهي.. ولا بد للإنسان أن يحافظ على سلامتها ولا تصل إلى مستوى (خبث الذات ورداءة الفطرة) كما يعبر عنها العلامة الطباطبائي قدس سره ولا أن تصل إلى مستوى (عين النجاسة) التي لا ينفع معها التطهير الظاهري كما يعبر عن ذلك السيد الشهيد قدس سره في فقه الأخلاق.. وعليه فإن موضوع التوبة من الناحية التأسيسية وعلاقته بالنظام المعرفي الديني لا بد أن يستند إلى أن الرجوع إلى الله سبحانه متقوّم بأن يمتلك الإنسان جهة قابلة للرجوع إلى عالم النور والطهارة، وبتعبير القرآن: ﴿مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3]، لأن القلب هو النافذة التي تربط الإنسان

---

(١) القصص: ٥١.

(٢) الأعلى: ٩-١٠.

(٣) الشعراء: ٨٩.

بعالم الغيب والملكوت فلا بد أن تبقى مفتوحة ولو بمقدار ما ولا تصل إلى مستوى (الختم) الذي يعبر عنه القرآن.. فالله سبحانه وتعالى لا تغرّه ظواهر الأحوال والأقوال بل يختبر القلوب ولا تنطلي عليه الحيلة والمكر والخديعة وعلى التائب أن يتوب توبة نصوحاً حسب تعبير القرآن حتى يجيبه الله ويتوب عليه بالرحمة والمغفرة.

● **الجهة السادسة**: ﴿وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾

من المؤكد أن الذين يموتون وهم كفّار لا تشملهم قوانين التوبة.. إذ بعد نهاية الحياة وختمها بالكفر سوف يكون الإنسان الكافر خارجاً عن موضوع التوبة أصلاً ويشمله ذيل الآية: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾، ومن هنا يطرح السؤال التالي:

إذا كان من الواضح أن الإنسان إذا مات على الكفر لا تقبل منه توبة فما هي فائدة هذا القيد الذي ذكرته الآية الكريمة وهو ﴿وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؟

الجواب: إننا من خلال هذا السؤال سوف نضع أيدينا على حقيقة أخرى من حقائق بحث التوبة لم نتعرض لها في البحوث السابقة.. ولعلها سوف تفتح لنا أفقاً جديداً في قبول توبة المؤمن الذي يموت وهو عاصٍ لله.. وبحسب الآية الكريمة فإن الذين

يموتون وهم كفار ميئوس منهم وليس لهم إلا العذاب الأليم.. أما الذي يموت وهو مؤمن ولكنه يموت على معصية فلا يكون ميئوساً منه ولا يشمله ذيل الآية: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ كلا، بل سيكون حسابه مختلفاً عن حساب الكفار.. نعم هذا المؤمن العاصي لم تصدر منه توبة إلى الله وبقي على معصيته ولكن هناك توبة من الله سبحانه عليه، وهذه التوبة تحتاج بياناً وتوضيحاً غير ما قلناه سابقاً لأنها تتحقق بعد الموت وليس أثناء الحياة.. أي أن هذا المؤمن العاصي - من غير استكبار- سيرجع الله عليه في الآخرة بنوع من المغفرة والرحمة وشفاعة الشافعين لأن الله سبحانه لا يمكن أن تقيّد أو تحدّد رحمته ومغفرته ولطفه.. ولكن هذا النوع من التوبة والمغفرة يحتاج إلى قاعدة عقائدية وتكوينية هي التي يتم من خلالها رجوع الله تعالى على العبد العاصي بالمغفرة بعد الموت، وهذه القاعدة يطلق عليها السيد الطباطبائي قدس سره بـ (شفاعة الشافعين).. لأن لكل نشأة قوانينها الخاصة بها.. فقانون المغفرة قبل الموت هو التوبة بشروطها التي ذكرناها،.. وهناك قانون آخر تكويني تقتضيه رحمة الله التي وسعت كل شيء هو الشفاعة وهو قانون أخروي لو صحّ التعبير.. وتفاصيل ذلك موكولة إلى بحث الشفاعة .. لكن باختصار نستطيع القول أن هناك

وجودات من شدة طهارتها وعظمتها وقربها إلى الله سبحانه تكون شافعة للمؤمن العاصي يوم الحساب.. وهؤلاء الشفعاء متعددون كما ورد في ألسنة الروايات المختلفة كالأنبياء والأوصياء والشهداء والقرآن وغيرهم.. إذن بإضافة هذا البحث لمباحث التوبة سوف تكتمل لوحة التوبة القرآنية إذ ما دام الإنسان في عالم الدنيا وعالم الاختيار فالله سبحانه لا يتركه بل يرجع عليه بالتوبة والمغفرة.. وكذلك لو ذهب المؤمن العاصي إلى الآخرة بدون توبة فسوف تلحقه الرحمة وقوانين الشفاعة.. ولهذا البحث نتائج مهمة على مستوى البحث العقائدي والأخلاقي ومنها أن الله سبحانه لم يخلق جهنم بالأصالة ولا يريد أن يعذب أحداً بالعنوان الأولي.. كلا حاشاه.. بل هو الرحمن الرحيم.. وليس عنده إلا الرحمة.. نعم عندما يسد الإنسان الطرق بمعاصيه وذنوبه.. والله سبحانه يريد له الخير والكمال والسعادة.. فيتعرض الإنسان لبعض الابتلاءات والعقوبات الدنيوية حسب ما قلناه سابقاً.



المبحث العاشر

● ما معنى تبديل السيئات حسنات؟

من الآيات المهمة التي وقع البحث فيها في موضوع التوبة هي قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1].

إذ تقرر هذه الآية الكريمة أثراً جديداً من آثار التوبة النصوح وهو تبديل السيئات إلى حسنات، ومن المعلوم أن الآيات السابقة في بحوثنا هذه كانت تقرر أن الله سبحانه وتعالى يمحو سيئات التائب ويغفر له ويتوب عليه، أما هذه الآية فإنها بصدد بيان نتيجة جديدة وأثراً آخراً يترتب على التوبة الحقيقية وهو تبدل السيئات إلى حسنات! ومن المؤكد أن هذه النتيجة بحاجة إلى توضيح وتنظير وبيان قاعدة يستند إليها هذا التبديل، لأن جميع أعمال الإنسان ومنها السيئات لها آثار تكوينية ووجودية، فكيف تتبدل السيئة وتصبح حسنة في عالم التكوين والوجود؟!

---

(١) الفرقان: ٧٠.

اختلفت كلمات المفسرين في بيان ذلك من الفريقين.. لكن الجدير بالذكر هنا هو تصور عظمة الرحمة الإلهية وسعة وجودها، فإن القواعد القرآنية تقرر أن السيئة بمثلها، والحسنة بعشر أمثالها، والحسنات يذهبن السيئات.. ثم بعد ذلك أن التوبة تبدل السيئات إلى حسنات!! اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء!

وأما أقوال المفسرين فهي كالتالي:

القول الأول: إن الله سبحانه يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم الجديدة. فالتبديل معناه محو السيئة السابقة وإثبات الحسنة الجديدة.

القول الثاني: إن المراد بالسيئات والحسنات ملاكاتها، أي المقتضيات النفسية والقلبية الموجودة في باطن الإنسان، فالتوبة النصوح ترفع ملكة السيئة من الإنسان التائب وتحلّ محلها ملكة الأفعال الحسنة، وهذا هو معنى: ﴿**يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾.

القول الثالث: إن المراد بالسيئات والحسنات في الآية الكريمة هو العقاب والثواب عليهما لا نفس السيئات والحسنات، أي أن الله سبحانه وتعالى يبدل عقاب السيئة إلى ثواب الحسنة.

وعند مقارنة هذه الأقوال الثلاثة مع النص القرآني نجد أن فيها تكلفاً واضحاً بل هي خلاف ظاهر الآية الشريفة، لأن ظاهر الآية هو أن التبديل وقع على السيئات مباشرة، أي تعلّق بها ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ولا يوجد هناك لفظ (يمحو) أو (يبدل الملاكات) أو (يبدل العقاب إلى ثواب) ومن الواضح أن التبديل يلزم أن يكون هناك شيء ارتفع وجاء شيء آخر حلّ مكانه، فالتبديل الإلهي يقع على نفس السيئة لتكون حسنة حسب نص الآية. وإذا سلمنا بهذا الظاهر، لنا أن نسأل: كيف حصل هذا التبديل؟

والجواب: أننا لا بد أن نعلم أولاً أن السيئة هي الفعل الواقع في متن الأعيان - باللغة الفلسفية- أي له تحقق في الواقع التكويني الخارجي، وكذلك الحسنة فعل واقع في متن الأعيان، ولكن صفة السوء والحسن ليست هي نفس الفعل التكويني الظاهر للعيان، أي ليست هي هذه الحركات التي تتحقق خارجاً في فعل المعصية، لأن الفعل الخارجي من حيث أنه فعل خارجي لا فرق فيه بين الحسن والسيّئ، ولتقريب ذلك نضرب هذا المثال: إن فعل الأكل كفعل من أفعال الإنسان إذا نظرنا إليه خارجاً نجده مجموعة من الحركات التكوينية ولا فرق من هذه الناحية بين أن يكون الأكل حراماً أم حلالاً، ولكن إذا كان

حراماً سميناه (معصية) و (سيئة)، فحقيقة السيئة ليست بهذه الأفعال الخارجية التي تتألف من الحركات والسكنات بل هي صفة الفعل من حيث موافقتها للتكليف الإلهي وعدم موافقتها له، فأكل الحرام هو أكل من الناحية التكوينية ولكن عندما يتصف بمخالفة التكليف الإلهي يكون سيئة، وكذلك الأكل المباح الذي هو أكل الحلال، فإن صفة الإباحة والحلّية تلزمه من حيث موافقته للتكليف الإلهي.

على ضوء ذلك لو صدرت السيئة من الإنسان لمخالفته التكليف الإلهي فسوف تكون لهذه السيئة آثار تكوينية تبقى ملازمة للإنسان العاصي إلى يوم القيامة لأنها آثار تكوينية وجودية حصلت للنفس حقيقة.

وهنا نسأل: لماذا اختار الإنسان ارتكاب المعصية ومخالفة الأمر الإلهي؟ أي إذا كان الفعل الخارجي واحداً من الناحية التكوينية كالأكل ونتيجته واحدة وهي الشبع وإطفاء شهوة الأكل، فلماذا اختار العاصي فعل الحرام الذي يؤدي إلى التهلكة وترك فعل الحلال المباح شرعاً؟

الجواب: إن سبب ذلك هو وجود شوب وقذارة في نفس الإنسان.. أي أن هناك خبثاً في النفس هو الذي كان منشأً

لمخالفة الأمر الإلهي واختيار طريق الحرام والعزوف عن طريق الحلال، ولولا هذا الخبث -حسب درجاته المختلفة عند الناس- لم يصدر من الإنسان فعل شيء حرام أبداً، فإذا كانت ذات الإنسان طاهرة مائة بالمائة لم تصدر منه المخالفة لأن الطيب لا يصدر منه إلا الطيب، وعليه فالسيئات ترجع إلى درجة من درجات الخبث في ذات الإنسان.

فإذا تاب هذا الإنسان العاصي توبة نصوحاً ورجع إلى الله سبحانه وتعالى فهذا معناه أنه رجع إلى مصدر الكمال والطهارة والطيب، ونتيجة لذلك سوف تتطهر نفسه الراجعة إلى الله ويزول خبثها وقذارتها.. وعند ذلك تطيب آثارها ولا يبقى فيها آثار للمعاصي والذنوب.. إذ لا يمكن تكويناً أن تكون النفس نقية صافية طاهرة ويوجد فيها شوب وقذارة الذنوب، إن هذا مستحيل تكويناً.. مثلها مثل الشجرة النابتة في أرض سبخة وهي على وشك الهلاك والموت فعندما تنقل إلى أرض طيبة ويصلها الماء الصالح سوف تنمو وتورق وتثمر بثمارها الطيبة من جديد بسبب طهارة المصدر وصلاحه.

والإنسان التائب كأنه كان مزروعاً في أرض سبخة عند معصيته وهي أرض الشهوات والنفس الأمارة بالسوء والملذات

الفانية ووسوسة الشيطان فتكون ثماره غير طيبة فيها خبث المعصية.. وعند التوبة والرجوع إلى الله سبحانه سوف يزرع الإنسان نفسه في الأرض الإلهية.. أي أرض الطاعة.. وهي أرض طيبة طاهرة تنبت طيباً وتثمر طيباً.. والنتيجة سوف تتبدل السيئات إلى حسنات حقيقية باعتبار أن المنشأ الخبيث تبدل إلى طيب فتتبدل جميع آثار وفروع هذا المنشأ.

وهناك آية قرآنية أخرى قريبة أيضاً من هذا المضمون وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[1] إذ ورد لفظ (يذهبن) وليس (يبدل) والمحصل هو زوال السيئات وثبوت الحسنات.

● تبدل السيئات حسنات بناءً على الحركة الجوهرية

قلنا إن قانون تبدُّل السيئات إلى حسنات في بحث التوبة بحاجة إلى بيان وتوضيح، وبالإضافة إلى ما ذكرناه يذكر السيد الطباطبائي قدس سره بياناً آخراً للتبدُّل المذكور يستند إلى المبنى الفلسفي القائل بالحركة الجوهرية، وهو: (أن النفس ما دامت في هذا العالم فهي في حركة جوهرية وتغيُّر وتبدُّل دائم في صراط الوجود، فالنفس ما دامت متعلقة بالبدن فهي جوهر متحول في

(١) هود: ١١٤.

ذاته وفي آثار ذاته، لأن الذات إذا تغيرت فستتغير آثارها تكويناً بالضرورة، ونعني بالآثار الصور التي تصدر عن النفس وتقوم بها، لأن كل فعل من أفعال النفس تكون له صورة في النفس، إما صورة نورانية إذا كان الفعل حسناً، أو ظلمانية إذا كان الفعل قبيحاً، ونتيجة لهذه الأفعال تقوم في النفس آثار سعيدة أو شقية حسب حقيقة الفعل، فإذا صدرت الحسنة من الإنسان سوف تحصل في ذاته صورة معنوية مقتضية لاتصافه بالثواب، غير أن النفس لما كانت في معرض التحوُّل والتغيُّر بحسب ما يطرؤها من الحسنات والسيئات - ما دامت في الحركة الجوهرية- كان من الممكن أن تبطل الصورة الموجودة الحاضرة أو تبديلها إلى غيرها، وهذا شأن النفس حتى يعرضها الموت فتفارق البدن وتقف الحركة ويبطل التحوُّل، فعند ذلك تثبت لها الصور وآثارها ثبوتاً لا يقبل التحوُّل إلا بالمغفرة أو الشفاعة)[١].

إذن بناءً على مبنى الحركة الجوهرية في الفلسفة يمكن تصوير تبدل السيئات إلى حسنات في بحث التوبة.

● العلاقة الوجودية بين أعمال الإنسان وتأثير بعضها ببعض

إن موضوع تبدُّل السيئات إلى حسنات وإن كان مختصاً

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٢، ص١٧١.

ببحث التوبة، لكنه يفتح لنا باباً مهماً في حقيقة أعمال الإنسان وتأثير بعضها ببعض من الناحية القرآنية، ولا بد أن نعرف العلاقة الوجودية والتكوينية التي تحكم أعمال الإنسان في هذا العالم، فكيف يستطيع العمل (أ) مثلاً أن يغير أو يبدل العمل (ب) وكيف تكون له القدرة التكوينية على هذا التأثير.

ومن الواضح في ضوء سنن الجزاء والثواب والعقاب الموجودة في المجتمع العقلائي إذا صدرت السيئة من الإنسان القادر المختار فإنه يستحق عليها العقاب والذّم، وإذا صدرت منه الحسنة فإنه يستحق الثواب والمدح، أما أن الحسنة تبدل السيئة السابقة أو تمحوها فهذا غير موجود في قوانين الجزاء والعقاب الدائرة في المجتمعات العقلائية.. في حين أن القرآن الكريم يستعرض مجموعة من الأعمال التي يقوم بها الإنسان ولها تأثير تكويني مباشر في أعماله السابقة أو حتى في أعمال إنسان آخر! وعليه فلا بد من وجود قوانين وسنن بين الأعمال حسب النظرة الإلهية القرآنية غير السنن والقوانين الموجودة في حياتنا العقلائية، وفيما يلي نستعرض بعض الأمثلة القرآنية في هذا الموضوع.

١. إن من المعاصي ما يحبط حسنات الدنيا والآخرة، ومثالها (الارتداد). قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ**

وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[١].

٢. إن من الطاعات التي يقوم بها الإنسان ما يكفّر سيئات الدنيا والآخرة، كالإسلام، والتوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[٢].

٣. إن من المعاصي ما يحبِط بعض الحسنات وليس جميعها، كالذي يشاقق الرسول الأكرم ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٤]، فالخروج عن طاعة النبي ومشاقته ليس معصية فقط وإنما يبطل الأعمال السابقة للإنسان، وكذلك رفع الصوت فوق صوت النبي الأكرمﷺ، فإنه يحبط الأعمال أيضاً، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ

---

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) الزمر: ٥٣-٥٤.

(٣) محمد: ٣٢.

(٤) محمد: ٣٣.

﴿أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[1]، فرفع الصوت فوق صوته المبارك يحبط أعمال وعبادات الإنسان، أي تكون باطلة وجودياً وتكوينياً!! وليس اعتبارياً وفقهياً! فالصوت المرتفع في حضرة هكذا مخلوق عظيم يكون علّة حقيقية لإبطال الأعمال السابقة للإنسان ومحوها!

٤. إن من الطاعات ما يكفّر السيئات، كالصلاة المفروضة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[2] وكذلك اجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[3] فنفس الاجتناب يكون علّة حقيقية لتكفير السيئات ومحوها.

٥. إن من المعاصي ما ينقل سيئات الغير إلى فاعل المعصية، ومثالها القتل، كما في قوله تعالى في قصة هابيل وقابيل: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾[4].

---

(١) الحجرات: ٢.

(٢) هود: ١١٤.

(٣) النساء: ٣١.

(٤) المائدة: ٢٨-٢٩.

ومعنى ذلك أن قابيل إذا قتل هابيل سوف يبوء بإثم هابيل المقتول إضافة إلى إثمه كقاتل، فالقتل سيئة تؤدي إلى نقل سيئات وآثام المقتول إلى القاتل.

٦. ومن المعاصي ما يؤدي إلى نقل مثل سيئات الغير إلى الإنسان لا عين السيئات، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١] أي أن الذين كانوا يتكلمون بأمور الدين مع الناس بغير علم ستكون عليهم أوزار الناس الذين استمعوا إليهم بالإضافة إلى أوزارهم أنفسهم.

٧. ومن الطاعات ما ينقل مثل حسنات الغير إلى الإنسان لا عين الحسنات، ومثالها الحديث المعروف: (من سنَّ سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة) فالسنة الحسنة عمل يوجب أن يكتب للإنسان حسنات الآخرين الذين يعملون بها.

٨. ومن المعاصي ما يوجب تضاعف العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ* أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ....﴾[٢].

---

(١) النحل: ٢٥.

(٢) هود: ١٩-٢٠.

٩. ومن الطاعات ما يوجب المضاعفة أيضاً، كالإنفاق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ....﴾(١) وكذلك فإن الحسنة مضاعفة بشكل مطلق حسب منطق القرآن: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٢) وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(٣).

١٠. من الحسنات ما يبدل السيئات إلى حسنات، كما في الآية التي هي محل البحث: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾(٤).

وعلى ضوء هذه الشواهد القرآنية وتأثير الأعمال بعضها بالبعض الآخر يظهر أن في الأعمال من حيث تأثيرها في السعادة والشقاء عند الإنسان نظام يختلف عن النظام الموجود الذي يظهر لنا في هذا العالم، فإن الظاهر لنا في هذه النشأة أن الأعمال لها نوع من الاستقلالية عن بعضها البعض، مثلاً: لو أن زيداً شرب الماء فلا يمكن أن يقول عمرو: زال عني العطش بسبب

---

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) الأنعام: ١٦٠.

(٣) الحديد: ١٨.

(٤) الفرقان: ٧٠.

أن زيد شرب الماء!! كلا، لأن شرب الماء سيؤثر تكويناً على فاعله فقط وهو زيد، ولا يمكن أن ينتقل إلى عمرو تكويناً. في حين أن الآيات التي ذكرناها تتكلم عن نظام آخر في الجزاء والعقاب والشقاء والسعادة.. فنرى أن الأعمال تتبدّل وتأتي أعمال غيرك إليك أو بالعكس تذهب أعمالك إلى غيرك، أو أن الأعمال تمحى أو تضاعف أو تكون لها أوزار يصاب بها الغير، وهكذا، وهذا نظام آخر يختلف تماماً عن النظام المشهود لنا في هذا العالم حول الأعمال وجزائها وثوابها وعقابها ونتائجها.

ومن هنا يعبر القرآن الكريم عن الأعمال السيئة: ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[1] أي أن الإنسان الذي كان متمتعاً بالأعمال السيئة في الدنيا يتضح بعد ذلك أنه كان يظلم نفسه حقيقة!

• لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

على ضوء ما تقدم من آثار الأعمال ونتائجها نفهم هذه القاعدة القرآنية والسنة الإلهية التي يقررها قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾[2]، على أساس أن الإنسان يخطط لإلحاق

(١) الأعراف: ١٦٠.

(٢) فاطر: ٤٣.

الضرر بالغير من خلال المكر والاحتيال ويحسب أن الضرر سيقع على الآخرين، لكن الله سبحانه وتعالى يقول: كلا، فإنك أيها الماكر إنما تحتال على نفسك وتخدعها وتمكر بها!! هذه هي حقيقة مكرك بالنظرة الإلهية وليس كما تتوهم أنك تمكر بالآخرين وتوقِع بهم! إذن عالم المجازات الحقيقية في عالم التكوين قد يبدّل الفعل إلى فعل آخر تختلف نتيجته عن الفعل الأول، وقد ينقل الفعل ويسنده إلى غير فاعله الذي يظهر لنا، وربما رتّب على الفعل حكماً غيّر حكمه الذي يظهر لنا في العالم المشهود.. إلى غير ذلك من الآثار المخالفة والمختلفة عن نظام هذا العالم الجسماني المادي. ومن هنا نتقدم خطوة أخرى في البحث وننظر إلى أعمالنا العبادية في الشريعة كالصلاة والصوم وغيرهما بهذه النظرة التي تؤسسها القوانين الإلهية.. ولا نقتصر على النظرة الفقهية السطحية لها، بل لا بد أن ندرك مدى تأثير الصلاة والصوم في عالم التكوين وما هي النتائج والآثار العظيمة التي تترتب عليهما وفقاً لحسابات النظام الإلهي الذي نتكلم عنه، من أن الحسنة كالصلاة مثلاً تمحو السيئة وتبدلها إلى حسنة.. فإن علم الفقه لا يمكنه توضيح عملية المحو والتبديل هذه.. بل علم العقيدة والتفسير يتكفل بيان ذلك، ومن المؤكد أن جميع أعمال

الإنسان من العبادات والمعاملات لها آثار تكوينية بالشكل الذي ذكرناه هنا، واستناداً لذلك يقرر القرآن الكريم هذه القاعدة والقانون الكوني والسنّة الإلهية التي لا تتبدل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[1] فإن الإنسان الذي هو سيد المخلوقات وخليفة الله في الأرض وهو المخلوق المختار الوحيد الذي يمثل الإرادة الإلهية، وبذلك صارت قافلة العالم ومسيرة الوجود كلها بيده وتحت إرادته.. وسخر الله له كل شيء في عالم الإمكان.. إن كل فعل من أفعال هذا الإنسان الخليفة له أثر في عالم التكوين سواء كان حسناً أم قبيحاً.. صغيراً أم كبيراً.. ولذلك يقول تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾[2].. أي أن الإنسان وفقاً للنظرة القرآنية هو محرك هذه الحياة ومسيرة الوجود وكل عمل من أعماله الشخصية أو الفردية أو الاجتماعية له أثر في هذه المسيرة الوجودية سواء كان حسناً أم قبيحاً، ولتأكيد هذا الدور لأعمال الإنسان نضرب بعض الأمثلة القرآنية.

---

(١) الروم: ٤١.

(٢) هود: ٥٢.



• أكل مال اليتيم أكل للنار!

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[1].

إن القرآن يؤكد أن أكل مال اليتيم ظلماً إنما هو أكل للنار!! البطون والأفواه تلتهم النار!! هذه هي حقيقة هذا الفعل بالرغم من أننا نرى الظالمين الذين يأكلون أموال اليتامى يتلذذون ويتنعمون عند التصرُّف بهذه الأموال! فكيف انقلب أكل المال إلى أكل النار؟!

• كنز اليتيمين وبناء الجدار

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾[2].

تقرر هذه الآية الكريمة أيضاً أن صلاح الأب في حياته له آثار كبيرة تكوينياً على مصير ذريته وأولاده، ولو تأمّلنا قليلاً في هذا المقطع من قصة موسى والعبد الصالح، لوجدنا أن العمل الصالح الذي قام به الأب أنتج أن يأتي نبي من أنبياء الله مع ولي من أولياءه الصالحين ويقطعان هذه الرحلة الطويلة من أجل بناء

(١) النساء: ١٠.

(٢) الكهف: ٨٢.

جدار لحفظ كنز هذين اليتيمين!!! لأن أباهما كان صالحاً!!

ونستطيع أن نؤكد هنا أن العبد الصالح الذي رافقه موسى عليه السلام ليس موجوداً في زمان موسى فقط.. كلا.. بل إن هذا التخطيط الإلهي والأولياء المنفذون له موجود في كل زمان.. كذلك نفهم كيف يحيق المكر السيّئ بأهله، إذ أن هناك تخطيطاً إلهياً يعجز الإنسان عن الإحاطة به ولكنه يتم من حيث لا يشعر الإنسان.

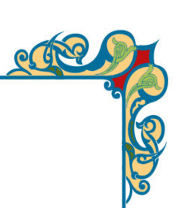
• يأكل لحم أخيه ميتا!

ومن الشواهد القرآنية الأخرى على حقيقة أعمال الإنسان وآثارها الوجودية، هو قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾[1] .

إذن فعل الغيبة الذي يسمى فاكهة المجالس إنما هو في واقعه التكويني (أكل لحم الأخ ميتاً) !! بالرغم من أن الشخص الذي يغتاب الآخرين يشعر بلذة خاصة عندما يفعل ذلك! فكم فرق من الناحية الظاهرية بين الكلام بالغيبة وبين أكل لحم الإخوان؟!!

---

(١) الحجرات: ١٢.



المبحث الحادي عشر

• بيان النظام التكويني الذي يحكم أعمال الإنسان

إن من ميزات الأعمال التي تصدر عن الإنسان – في النظام الإلهي – أنها مكتوبة ومجسمة ومحفوظة، بعبارة أخرى أننا في عالمنا المشهود إذا أردنا أن نثبت أعمال إنسان ما، فإننا نسجلها ونحصيها عليه فقط، أما في نظام التكوين الإلهي ليس الأمر كذلك، بل نجد أن القرآن يؤكد على حفظ نفس العمل وتجسّمه وكتابته، ونقصد بالكتابة هنا تثبيت نفس العمل من الناحية الوجودية والتكوينية وليس المقصود الكتابة المتعارفة بيننا.

قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً**﴾[(١)].

أي أن الإنسان يوم القيامة يجد نفس عمله محضراً! ولذلك إذا وجد الإنسان أعماله السيئة حاضرة أمامه سوف يهرب منها لشدة قبحها وهولها وحقيقتها المنكشفة أمامه ذلك اليوم فيودُّ أن بينه وبينها أمداً بعيداً!!

---

(١) آل عمران: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١).

فإن كشف الغطاء معناه أن الإنسان يرى أعماله على حقيقتها التكوينية وهي خلاف ما كان يظهر له منها في نشأة الدنيا، فيرى حقيقة الغيبة أنها أكل لحم الأخ! ويرى أكل مال اليتيم أكلاً للنار وهكذا في كل أعماله الحسنة والقبيحة، لأنها في الحسابات الإلهية مثبتة مجسمة حاضرة.

إذن ميزة أعمال الإنسان أن لها ثبوتاً في عالم التكوين ولها ظهوراً آخر في نشآت أخرى.

ومن الملفت للنظر أننا نجد تركيزاً قرآنياً شديداً على أن أعمال الإنسان في الدنيا مرتبطة بحوادث الكون، ونقصد بالأعمال الحسنات والسيئات التي تصدر من الإنسان.. ومن المؤكد أن كل عمل له صفة خارجية أو هيئة يتصف بها، وحينما نقول أن الأعمال مؤثرة في الكون لا نقصد بالعمل نفس العمل الخارجي بحركاته وسكناته في متن الأعيان، وإنما نقصد عناوين وصفات هذه الحركات، فمثلاً فعل الأكل تارة يكون مباحاً وأخرى يكون حراماً إذا كان مغصوباً مثلاً، فلو نظرنا إلى فعل

---

(١) ق: ٢٢.

الأكل المتحقق في الخارج لم نجد فرقاً بين أكل الحرام وأكل الحلال من الناحية التكوينية ولذلك إذا رأينا إنساناً يأكل لا نعلم أن أكله حلال أم حرام، لأن الفعل الواقع أمام أعيننا واحد. لكن الفرق بينهما أن أكل الحلال يتصف بالحلّية لأنه موافق للأمر الإلهي، وأكل الحرام يتصف بالحرمة لأنه مخالف للتشريع الإلهي، وهذان الوصفان هما اللذان يؤثران في عالم التكوين.

ولزيادة التوضيح نذكر مثالاً آخر، وهو الاقتراب من النساء، فإذا كان الجماع يحصل من طريق محرم سيكون هذا العمل (زنا) محرماً، وإن كان يحصل عن طريق عقد شرعي مستوفي لشروطه سيكون نكاحاً محللاً، بالرغم من أن شكل الفعل الواقع في الخارج وعالم الواقع واحد لا فرق فيه من الناحية التكوينية بين الزنا والنكاح الشرعي، وإنما نقول الزنا سيئة والنكاح الشرعي حسنة بالنظر إلى موافقة أو مخالفة الأمر الإلهي، وهذه الحيثية هي التي تكتب وتحفظ على الإنسان وهي المؤثرة في حوادث الكون الخارجية.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[1]، أنظر إلى قيد (بما كسبت أيديكم) أي نتيجة

(١) الشورى: ٣٠.

لأعمالكم التي تصدر عنكم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾(١).

أي أن تغيير النفوس والنوايا الباطنية عند الإنسان له تأثير خارجي على مجمل أحوال المجتمع الإنساني.

كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢).

ولو تتبعنا الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا الموضوع لوجدنا أن آيتين منها تجمعان كل هذه المعاني وهما، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣)، وقوله تعالى﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٤).

يقول العلامة الطباطبائيقُدِّسَ سِرُّه تعقيباً على هذا الموضوع: (فالحوادث الكونية تتبع أعمال الإنسان بعض التبعية، فالتزام

(١) الرعد:١١.
(٢) الأنفال: ٥٣.
(٣) الأعراف: ٩٦.
(٤) الروم: ٤١.

النوع الإنساني بطاعة الله سبحانه وسلوكه الطريق الذي يرتضيه يستتبع نزول الخيرات، وانفتاح أبواب البركات، وانحراف الإنسانية عن صراط العبودية، وتماديها في الغي والضلالة، وفساد النيات، وشناعة الأعمال يوجب ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الأمم بانتشار الظلم وارتفاع الأمن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله، وكذا ظهور المصائب والحوادث المبيدة الكونية كالسيل والزلزلة والصاعقة والطوفان وغير ذلك، وقد عدَّ الله سبحانه سيل العرِم وطوفان نوح وصاعقة ثمود وصرصر عاد من هذا القبيل.

فالأمة الصالحة إذا انفجرت في الرذائل والسيئات أذاقها الله وبال أمرها وآل ذلك إلى هلاكها وإبادتها، قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[٢]، هذا كله في الأمة

(١) غافر: ٢١.

(٢) الإسراء: ١٦.

الطالحة، والأمة الصالحة خلاف ذلك.

والإنسان الفرد كالأمة يؤخذ بالحسنة والسيئة والنقم والمثلات، غير أن الفرد ربما ينعم بنعمة أسلافه كما أنه يؤخذ بمظالم غيره كآبائه وأجداده، قال تعالى حكاية عن يوسف ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١)، والمراد به ما أنعم الله عليه من الملك والعزة وغيرهما، وقال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾(٣)، وكأنه الذرية الصالحة المنعمة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾(٥).

وبالجملة إذا أفاض الله نعمة على أمة أو على فرد من أفراد الإنسان فإن كان المنعم عليه صالحاً كان ذلك نعمة أنعمها عليه

(١) يوسف: ٩٠.
(٢) القصص: ٨١.
(٣) مريم: ٥٠.
(٤) الزخرف: ٢٨.
(٥) الكهف: ٨٢.

وامتحاناً يمتحنه بذلك، كما حكى الله تعالى عن سليمان إذ يقول: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(١).

وإذا كان المنعم عليه طالحاً كانت النعمة مكراً في حقه واستدراجاً وإملاءً يملى عليه، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(٣)، وإذا نزلت النوازل وكرّت المصائب والبلايا على قوم أو على فرد فإن كان المصاب صالحاً كان ذلك فتنة ومحنة يمتحن الله بها عباده ليميز الخبيث من الطيب، وكان مثله مع البلاء مثل الذهب مع البوتقة والمحك، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٤).

---

(١) النمل: ٤٠.

(٢) الأنفال: ٣٠.

(٣) القلم: ٤٤-٤٥.

(٤) العنكبوت: ٢-٤.

وإذا كان المصاب طالحاً كان ذلك أخذاً بالنقمة وعقاباً بالأعمال، فهذا حكم العمل يظهر في الكون ويعود إلى عامله)[١].

ومن خلال جميع ما تقدم ظهر أن تأثير أعمال الإنسان في حوادث هذا العالم هو سنّة إلهية يقررها القرآن الكريم من خلال كثير من الآيات التي يتفق لسانها ومضمونها على ثبوت هذه السنة التكوينية، بعبارة أخرى نفهم من القرآن في هذا الموضوع أن أعمال الإنسان ونواياه تمثل روح هذه النشأة الدنيوية، مثال ذلك كالنفس بالنسبة إلى بدن الإنسان، فإن أعضاء البدن كاليد والرجل واللسان كلها تتحرك حسب نوايا النفس وإرادتها، فاليد والرجل قد تتحرك لمساعدة الآخرين، وقد تتحرك بعكس ذلك وتظلم الآخرين.. مع أنها نفس اليد ونفس الرجل!! ومن المعلوم أن النفس هي المسؤولة عن أعمال البدن وحركاته وسكناته، ولذلك قلنا في بحوث سابقة أن جوارح الإنسان تشهد ضد الإنسان يوم القيامة، لأن نفس الإنسان هي المسؤولة عن حركاتها وأعمالها في عالم الدنيا، وحينئذ فإن أعمال الإنسان ونواياه – بناءً على السنّة الإلهية التي ذكرناها– تكون هي المحرِّكة لحوادث هذا العالم وهي المسؤولة عنها، وكأن الآيات القرآنية في

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٢، ص١٨٥–١٨٧.

هذا الموضوع تضع الإنسان وأعماله في قلب المنظومة التكوينية التي تدير هذا العالم، وأن أعماله لها تأثير مباشر في حوادثه سواء كانت خيراً أم شراً، صغرت أم كبرت.

• **أعمال الإنسان على ضوء نظرية (أخلاقية الكون)**

على ضوء تأثير أعمال الإنسان في حوادث الكون تظهر لدينا نتيجة أخرى على درجة كبيرة من الأهمية في تحديد حقيقة التدين التي ترتكز على الرؤية الكونية للعالم، وهذه النتيجة هي ما يمكن أن نسميه (أخلاقية الكون) وقد ذكرها المفكر الإيراني مصطفى ملكيان عند تحليله وبيانه لمميزات التدين العقلاني الذي يؤمن به، حيث يذكر في الميزة الرابعة للتدين العقلاني: (أننا - كمؤمنين بالله سبحانه وبالدين- لا بد أن نؤمن بأن الكون أخلاقي، بمعنى أن الكون محكوم بنظم أخلاقية تكوينية بمنتهى الدقة، ولا نقصد هنا النظم الأخلاقية التي تحكم حياة الناس، بل نقصد العلاقات التكوينية بين أجزاء الكون، ومعنى أن يرى الإنسان العالم ذا نظام أخلاقي هو بعبارة مبسطة أن نعتقد بأن أي ذرة خير أو شر يستحيل أن تضيع سدى في هذا الوجود، فحينما يقال: إن نظام الكون نظام أخلاقي فمعنى ذلك أن الكون مفطور بنحو يدرك ما نقوم به نحن البشر من فضائل أو رذائل

أولاً، وثانياً تصدر عنه ردود أفعال تناسب هذه الحسنات والسيئات مهما كانت مجهرية، أي أن الله نظمه بحيث يجازي على الخير والشر، فإذا آمن شخص بهاتين القضيتين فهو مؤمن بسيادة نظام أخلاقي دقيق جداً على عالم الوجود، وفي القرآن إشارة صريحة إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾(١).

فنظام الكون نظام أخلاقي والعالم الذي نعيش فيه له إدراكه وعلمه بما نفعل، وله إلى ذلك إرادته وردود أفعاله، بما يتناسب وإدراكاته.

والمقتنع بهذا النظام الأخلاقي يشعر بالأمن المطلق في عالم الوجود، وبالتالي كلما كان تديننا عقلانياً شعرنا بالأمان والطمأنينة، فالإنسان لا يعيش الأمن في الكون الذي يعتقد أنه غير عالم بالحسن والقبح أو غير قادر على مجازاة الخير والشر)(٢).

ومن الواضح أن هذه النظرية (أخلاقية الكون) مؤسسة تأسيساً كاملاً على ما ذكرناه من علاقة أعمال الإنسان بحوادث

---

(١) الزلزلة: ٧-٨.

(٢) التدين العقلاني، مصطفى ملكيان، ترجمة د. عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، ص١١.

الكون، أي أن الكون خلق بطريقة لا يقف فيها صامتاً تجاه أعمال الإنسان سواء كانت خيراً أم شراً، فلولا العلاقة التكوينية التي يذكرها القرآن الكريم بين أعمالنا وحوادث الكون لما وجد أي أساس فلسفي لنظرية أخلاقية الكون.

فالإنسان وفقاً لهذه النظرة سيكون المسؤول الأكبر عن سلامة الكون ومسيرته الوجودية، والكون بكل تعقيداته الوجودية ونواميسه التكوينية هو بعُهدة الإنسان خليفة الله عز وجل.. والمحرك لهذا الوجود.. وقد وهبه الله للقيام بهذه المسؤولية العقل والضمير والوجدان والقلب وبعث له الأنبياء والمرسلين والوحي السماوي، فإذا أحسن الإنسان أحسن الكون وإذا أساء الإنسان فسد الكون.. وإذا أردنا أن نتكلم عن الإنسانية التي يتبناها القرآن الكريم فهي ليست هذه الإنسانية بمفهومها الاجتماعي البسيط، بل بذلك المعنى العميق الوجودي الذي يفسر لنا حقيقة الخلافة الإلهية وحقيقة هذه النشأة التي يكون الإنسان سيد مخلوقاتها.. وأنه خلق في أحسن تقويم..

ومن العجيب والملفت للنظر أني وجدت كلاماً ينسجم مع هذا المضمون في عقائد الديانة الهندوسية وهو ما يسمى عندهم بـ (الكارما) وهي ركن من أركان أربعة تقوم عليها تلك

الديانة، ولا أشك قيد أنملة أن هذا الركن تمت وراثته من تعاليم الأنبياء السابقين وأن مصدره سماوي بالرغم من إضافته إلى مضامين منحرفة عند الهندوس، حيث يقول البروفسور أتريا في شرح عقيدة الكارما: (لا بد أن ينطبق علينا قانون الجزاء المسيطر على حياة سائر الأحياء الحرة في الكون، وليس لأحد أن يتملص منه، ليس في الكون مكان - لا الجبال، ولا السموات، ولا البحار، ولا الجنات- يفرّ إليه المرء من جزاء أعماله، حسنة كانت أو سيئة.

وجميع أعمال البشر الاختيارية التي تؤثر في الآخرين، خيراً كانت أو شراً، لا بد أن يجازى عليها بالثواب أو العقاب طبقاً لناموس العدل الصارم، فنظام الكون إلهي قائم على العدل المحض، وإن العدل الكوني قضى بالجزاء لكل عمل، وإن في الطبيعة نوعاً من النظام لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء، وبعد إحصائها ينال كل شخص جزاءه على عمله، ويكون الجزاء في الحياة حسب العقيدة الهندوسية.

وتحاول فلسفة اليوجا تقريب موضوع الكارما أو قانون الجزاء إلى الأذهان فتذكر أن حياتنا تكون سارة أو غير سارة تبعاً لما وضعنا لها من أسباب بما قدمنا من أعمال، وهذا يشبه ما يقال



عندما تقع مصيبة على شخص فإننا نقول: (من عمله) إذ الجزاء من جنس العمل، فالظالم يُظلَم والمعين يُعان)[1].

وبالرجوع إلى موضوع التوبة وأن الله يبدل السيئات حسنات سوف يكون ذلك طبيعياً جداً حسب التصوُّر الذي ذكرناه لأن التوبة النصوح هي عمل في المنظومة الوجودية، وعندما يصدر هذا العمل الصالح من الإنسان سوف تظهر آثاره في شبكة الوجود، وقلنا أن بعض الروايات الواردة في موضوع التوبة تؤكد أن الأرض تستر معاصي التائب، والملائكة يحجبون سيئاته السابقة وهكذا..

(١) ينظر موسوعة الأديان في العالم، الديانات القديمة، الهندوسية ص١٢٤-١٢٥.



المبحث الثاني عشر

● الغلبة الإلهية مسيطرة على جميع حوادث الكون

وصلنا في نهاية البحث السابق إلى أن أعمال الإنسان لها تأثير مباشر في حوادث الكون، ومن هنا يجدر بنا التنبيه على حقيقة أخرى من حقائق هذا الكون، وهي ما يسمى بالاصطلاح القرآني بـ (الغلبة الإلهية) ونعني بها سيطرة الحكمة والقدرة الإلهية على جميع مجريات الكون بما فيها أفعال الإنسان والنتائج التكوينية المترتبة عليها.

وتوضيح ذلك: إن الأعمال التي صدرت من الإنسان - سواء كانت حسنة أم سيئة- ستعود آثارها وتصيب الإنسان نفسه، وتكون نتائجها في الوقت نفسه في صالح الحكمة الإلهية وهذا من بديع الخلق الذي تعجز العقول عن إدراك حقيقته والوقوف على كيفية حصوله.. ولنذكر لذلك مثالاً قرآنياً واحداً لتقريب معنى الغلبة الإلهية التي تسوق جميع حوادث الكون إلى صالح الحكمة الإلهية.. وهذا المثال مأخوذ أيضاً من سورة يوسف المباركة.

ومن المعلوم أن محور هذه السورة هو حال يوسف عليه السلام وإخوته والأحوال التي مرت عليهم. ولنأخذ مشاهد هذه القصة كما يعرضها القرآن بشكل مختصر لنصل إلى النتيجة التي توضح لنا الغلبة الإلهية.

أولاً: إن إخوة يوسف كادوا له كيداً وخططوا لتصفيته وقتله ﴿**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً**﴾[1]!! ثم قال أحدهم أننا نرميه في غيابة الجب! وبدءوا بتنفيذ هذه الخطة فعلاً ورموه في غيابة الجب!

إن هذا الفعل كان في نظر إخوة يوسف يؤدي إلى هلاكه أو إبعاده والتخلص منه، لكنه في النظرة الإلهية والحكمة الربانية ليس إلا خطوة نحو الكمال، أي عكس ما يريدون!

ثانياً: جاءت سيارة أي قافلة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام!! فأخذته السيارة وشروه بثمن بخس دراهم معدودة!! وفي نظر هؤلاء أنه أصبح رقاً مملوكاً ضعيفاً، وفي النظرة الإلهية ليس ذلك إلا خطوة ثانية نحو الكمال والنصر!!

ثالثاً: إنه بسبب ذلك وصل إلى بيت الملك أو العزيز ثم



(١) يوسف: ٩.

واجهته مصيبة أخرى أو ابتلاء جديد من امرأة العزيز التي راودته عن نفسه! فكادت له أيضاً وخططت للإيقاع به من خلال الإغراء.. ونجا يوسف من هذا الامتحان العظيم.

رابعاً: إن زليخا كادت له مكيدة جديدة أوصلته إلى السجن، وظنت بحساباتها أنها ستقضي على يوسف عليه السلام، لكن بالحسابات الإلهية هذه خطوة جديدة نحو النجاة والكمال والنصر. لأنه سيلتقي شخصين يقصّان عليه رؤيتهما التي ستكون سبباً لوصوله إلى فرعون مصر الذي رأى رؤيا لم يستطع المؤولون تفسيرها! فأوصله السجن إلى ديوان الملك!

وهذه الأحداث كلها مكائد.. مكيدة إخوته.. مكيدة امرأة العزيز وإغرائها.. مكيدة امرأة العزيز وزجّه في السجن! وبنظر أصحابها أن هذه المكائد كانت تؤدي إلى هلاك يوسف والتخلص منه، لكنها في حسابات المعادلة الإلهية كانت أسباباً لوصول يوسف عليه السلام إلى عرش الملك وديوان السلطة العليا!

بعبارة أخرى: أن نفس الأسباب والأفعال التي صدرت من أعداء يوسف لغرض إهلاكه.. نفس هذه الأسباب جعلها الله سبحانه سبباً لرفعته وعزّته ونجاته!! وهم باؤوا بإثمها بالرغم من أنها تصب في الحكمة الإلهية والإرادة الربانية، ولذلك

ورد في بداية سورة يوسف: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[(١)]، ولو قارنا بين بداية القصة وبين نهايتها لرأينا شيئاً عجيباً لا يمكن أن نتصوره بحساباتنا وعقولنا القاصرة، أن صبياً رماه إخوته في البئر.. وأخذته السيارة لتبيعه رقاً، كيف يكون في نهاية المطاف ملكاً؟!!! إن المقدمات التي مرّ بها لا تشبه النتيجة التي وصلها! هذا ما نعبّر عنه بالغلبة الإلهية على حوادث الكون، فإن تأثيرها وإن كان يعود على الإنسان نفسه وهو الذي يبوء بإثمها لكن نتائجها تصب في صالح التخطيط الإلهي الغالب والمسيطر على كل حوادث الكون.

فالإنسان ينوي ويسعى لفعل من الأفعال يريد به غاية وهدفاً خاصاً، لكن الهدف والغاية الحقيقية تقع ضمن الأسباب الإلهية التي تريدها حكمة الله في هذا الكون، ومن هنا يعبر القرآن عن ذلك: ﴿وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[(٢)]، أي الأسباب التكوينية بأجمعها تعود لله سبحانه وجميع نتائجها في السموات والأرض ترجع إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِين * إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا

(١) يوسف: ٢١.

(٢) الفتح: ٧.

لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[(١)] أي أن جميع أعمال الإنسان السيئة هو سيبوء بإثمها لكن نتيجتها بصالح الغلبة الإلهية، كما في قصة يوسف عليه السلام التي ذكرناها، وكيف شاهدنا أن الأسباب التي أرادها البشر تنوي شيئاً في حين أن الغلبة الإلهية قادت يوسف عليه السلام إلى شيء آخر غير الذي كان يفكر به أعداؤه.

● أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

على ضوء ما تقدم سوف يتضح لنا معنى قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(٢)].. وذلك لأن (أولياء الله) الحقيقيين يؤمنون بالنظام الإلهي المسيطر على الكون.. ويوقنون بالغلبة الإلهية.. فهم لا يخافون من الأسباب ولا من نتائجها، لعلمهم بأن الأسباب كلها بيد الله سبحانه.. وكذلك هم لا يحزنون إذا تواردت عليهم حوادث الدنيا لأنهم يعلمون بأن نتيجة هذه الحوادث تصب في صالح الحكمة الإلهية فلماذا الحزن إذن ما داموا أولياءً لله؟!!

والله سبحانه بيده ملكوت السموات والأرض.. وله جنود السموات والأرض!

---

(١) الصافات: ١٧١-١٧٣.

(٢) يونس: ٦٢.

ومن هنا يذكر السيد الطباطبائي قدس سره في تفسير الميزان أن الغرض الأساسي من سورة يوسف عليه السلام هو بيان ولاية الله سبحانه وتعالى لعبده، أي أن الله سبحانه إذا أراد أن يكون ولياً لإنسان ما فيبين من خلال قصة يوسف عليه السلام كيف يخلص أولياءه بالأسباب الطبيعية ويرفعهم بنفس الأسباب التي أرادها البشر لهلاكهم!

ومن الأمثلة الأخرى على حالة أولياء الله هو حال سيدتنا زينب عليها السلام عندما قالت: ما رأينا إلا جميلاً!! بالرغم من أن المصائب التي مرّت عليها تزول منها الجبال! أي ما دام الله سبحانه يعلم ما حدث بنا يوم عاشوراء وسمح بوقوع ذلك فهذا كمال لنا أكيداً.. فيكون جميلاً! فصفة (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) من أهم الصفات القرآنية التي يثبتها الله سبحانه لأوليائه الحقيقيين.

وهذا بخلاف حالنا نحن الناس العاديون فترانا نخاف ونحزن ونتألم من حوادث الدنيا لأننا لا نعلم بحكمة الله وغلبته في السموات والأرض ونحن مشمولون بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1] نعم! فأغلب

---

(١) يوسف: ٢١.

الناس وأكثرهم محجوبون عن رؤية هذه الغلبة المسيطرة على مقاليد الكون والوجود.

• ولله جنود السموات والأرض

يعبّر القرآن عن الأسباب التكوينية في الوجود بتعبير (جنود)، والجند في اللغة هم الجمع الغليظ من الناس لهم غرض واحد يعملون لأجله، ولذا أطلق على العسكر بأنهم جند أو جنود، أي تجمعهم القوة ولهم هدف واحد ويأتمرون بأمر آمر واحد.

ومن هنا يعبر القرآن عن الأسباب التكوينية بـ ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[1] فأسباب السموات وأسباب الأرض التي نسميها في الفلسفة بالعلل الوسطى كلها جنود بالتعبير القرآني لأنها تمثل جمعاً قوياً غليظاً مترابطاً وتأتمر بأمر آمر واحد وهي الإرادة الإلهية المسيطرة على الكون.. وهو الفاعل الحقيقي سبحانه وتعالى.. ولهذه الأسباب والجنود غاية واحدة، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ**﴾[2] .. فما دام هناك هدف حقيقي واحد من الخلقة فينتفي اللعب الذي هو

---

(١) الفتح: ٧.

(٢) الأنبياء: ١٦.

الفعل عندما تكون له غاية خيالية.. فالأسباب التكوينية وكل حوادث الكون مقهورة مغلوبة لإرادة وكلمة صانعها الحقيقي وهي جنود له سبحانه، وإذا أراد الإنسان أن يفعل المعصية والسيئة ويحتال ويخدع ويكيد ويمكر ويكذب ويظلم.. فجنود الله تسوق هذه الأفعال نحو الهدف الإلهي وبنفس الوقت يبوء الإنسان بإثمها وعقابها.. لكن أكثر الناس غافلون عن رؤية هذه الحكمة والتخطيط الإلهي.

ومن هنا يطرح السؤال التالي: لماذا نحن محجوبون ولا ندرك الغلبة الإلهية؟

أي أن جنود الله هي التي تعمل في السموات والأرض، ونحن نشعر باستقلالية في أعمالنا ولذلك نخطط ونكيد ونخدع الآخرين! وإلا فإن هذه الغفلة لو ارتفعت وعلم الإنسان فعلاً بكيفية عمل هذه الأسباب لكنّا نعيش جميعاً بسلام ويكون الإنسان سيد المخلوقات فعلاً! أي أن الإنسان لو أدرك موقعه الحقيقي في هذا العالم سيكون بحسب التعبير القرآني (أعظم الجنود) .. لأنه خليفة الله فلا بد أن يكون الجندي الأوفى والأكثر طاعة وامتثالاً للأوامر الإلهية.. وكل الجنود الباقين سيكونون تحت سيطرة الإنسان من الناحية التكوينية والرتبية.. ولكن مع




الأسف الشديد نجد هذا الجندي هو الذي يعصي ويسيء ويظلم!!

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره إن قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1] مُشعِر بأن هذه الغلبة من الله سبحانه ليست بحيث يفقهها جميع الناس بل أكثرهم جاهلون بها، ولو كانت هي الغلبة الحسية - أي المحسوسة بالحواس الظاهرة- التي يعرفها كل أحد لم يجهلها الأكثرون، وإنما جهلها من جهلها وأنكرها من أنكرها من جهتين:

الجهة الأولى: إن الإنسان محدود فكره، مقصور نظره على ما بين يديه مما يشهده ولا يغيب عنه، يتكلم عن الحال ويغفل عن المستقبل، ويحسب دولة يوم دولة! ويعد غلبة ساعة غلبة! ويأخذ عمره القصير ومتاعه القليل مقياساً يحكم به على عامة الوجود، لكن الله سبحانه وهو المحيط بالزمان والمكان والحاكم على الدنيا والآخرة والقيوم على كل شيء إذا حكم حكم فصلاً، وإذا قضى قضى حقاً، والأولى والعقبى بالنسبة إليه واحدة، لا يخاف موتاً، ولا يعجل في أمر، فمن الممكن (بل الواقع ذلك) أن يقدر فساد يوم مقدمة يتوسل بها إلى إصلاح دهر، أو حرمان فرد

(١) يوسف:٢١.

ذريعة إلى فلاح أمة، فيظن الجاهل أن الأمر أعجزه تعالى وأن الله تعالى مغلوب (ساء ما يحكمون)، لكن الله سبحانه يرى سلسلة الزمان كما يرى القطعة منه، ويحكم على جميع خلقه كما يحكم على الواحد منهم، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم، قال تعالى: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1].

الجهة الثانية: إن غلبة المعنويات غير غلبة الجسمانيات، فإن غلبة الجسمانيات وقهرها أن تتسلط على الأفعال فتجعلها منقادة مطيعة للقاهر الغالب عليها بسبب حرية الاختيار، وبسط الكره والإجبار كما كان ذلك دأب المتغلبين من ملوك الاستبداد، فكانوا يقتلون فريقاً، ويأسرون فريقاً، ويفعلون ما يشاؤون بالتحكم والتهكم، وقد دلت التجارب وحكم البرهان على أن الكره والقسر لا يدوم، وأن سلطة الأجانب لا تستقر على الأمم الحية، استقراراً مؤبداً، وإنما هي رهينة أيام قلائل.

وأما غلبة المعنويات فبأن توجد لها قلوب تستكنها، وبأن تربي أفراداً تعتقدها وتؤمن بها، فليس فوق الإيمان التام درجة، ولا كأحكامه حصن، فإذا استقر الإيمان بمعنى من المعاني فإنه

(١) آل عمران: ١٩٦-١٩٧.

سوف يظهر دهراً وإن استخفى يوماً أو برهة! ولـذلك نجـد أن الدول المعظمة والمجتمعات الحية تعتني بـشأن التبليـغ أكثـر ممـا تعتني بشأن العدة والقوة، فسلاح المعنى أشد بأساً!

هذا في المعنويات الصورية والوهمية بين الناس في شؤونهم الاجتماعية التي لا تتجاوز حدّ الخيال والوهم، وأما المعنى الحـق الذي يدعو إليه سبحانه فإن أمره أوضح وأبين.

فالحق مـن حيـث نفـسه لا يقابـل إلا الـضلال والباطـل، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ومـن المعلـوم أن الباطـل لا يقـاوم الحق فالغلبة لحجة الحق على الباطـل، والحـق مـن حيـث تـأثيره وإيصاله إلى الغاية أيضاً غير مختلف ولا متخلف، فإن المؤمن لـو غلب على عدو الحق في ظاهر الحياة كان فائزاً مأجوراً، وإن غلب عليه عدو الحق، فإن أجبره على ما لا يرتضيه الله سـبحانه كانـت وظيفته الجري على الكره والاضطرار، ووافق ذلك رضاه تعـالى، قال تعالى:﴿إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[1]، وإن قتله كان ذلك له حياة طيبة لا موتاً، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْـوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[2].

(١) آل عمران: ٢٨.

(٢) البقرة: ١٥٤.

فالمؤمن منصور غير مغلوب أبداً إما ظاهراً وباطناً، وإما باطناً فقط، ومن هنا يظهر أن الحق هو الغالب في الدنيا ظاهراً وباطناً معاً.

أما ظاهراً: فإن الكون يهدي النوع الإنساني هداية تكوينية إلى الحق والسعادة وسوف يبلغ غايته، فإن الظهور المترائى من الباطل جولة بعد جولة لا عبرة به، وإنما هو مقدمة لظهور الحق ولما ينقض سلسلة الزمان ولمّا يفن الدهر، والنظام الكوني غير مغلوب البتة.

وأما باطناً: فلما عرفت أن الغلبة لحجة الحق، ولحق القول والفعل كل صفة جميلة كالثبات والبقاء والحسن، ولباطل القول والفعل كل صفة ذميمة كالتزلزل والزوال والقبح والسوء)[1].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٢، ص١٨٥.



المبحث الثالث عشر

نعود في هذا المبحث إلى أصل البحث في موضوع التوبة وبالتحديد إلى الآية الكريمة التي انطلق منها البحث وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً... ﴾، وختاماً للبحث فيها هناك عدة نقاط يجدر الالتفات إليها في الآية.

• التوبة إلى الله غير متناهية

النقطة الأولى: إن الخطاب في هذه الآية الكريمة موجه للذين آمنوا، أي أن الله سبحانه يأمر الذين آمنوا بالتوبة والرجوع إليه، ومن هنا يطرح السؤال التالي: إن المؤمنين بصفتهم (مؤمنين) راجعون إلى الله سبحانه بمقتضى إيمانهم، فالمؤمن من حيث هو مؤمن حاضر عند الله سبحانه بإيمانه، وبعبارة أوضح: المؤمن لم يترك الله لكي يوجه له النداء بالتوبة والرجوع؟ فلماذا يقول الله: يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله؟

ويمكن التعليق على هذه النقطة بجوابين:

الجواب الأول: إن المؤمن الحقيقي بالنظرة الإلهية المطلوبة لا بد أن يكون طيباً طاهراً بكل وجوده حتى يعود ويكون

حاضراً عند الله سبحانه بجميع حيثيات ومستويات وجوده، والإنسان المؤمن إذا صدرت منه المعصية يبقى مؤمناً ولا يتنافى ذلك مع أصل إيمانه، لكن ستبقى جهة من جهات وجوده بعيدة عن الله سبحانه بسبب المعصية ولا يتحقق حضوره الكلي عند الحق عز اسمه.. ولا ينال القرب المطلق في الحضرة الإلهية، ذلك لأن الله طيب لا يحضر عنده إلا الطيب، وعندما تصدر المعصية من المؤمن سوف يبتعد عن الله من جهتها وعند ذلك يناديه الله عز وجل بنداء التوبة والرجوع: يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله.. ولذلك نرى أن الآية الكريمة قيدت هذه التوبة بأن تكون توبة نصوحاً.. أي خالصة لله لا يصدر بعدها ذنب، لأن (النصوح) صيغة مبالغة من (النصح) والنصح معناه الإخلاص، كما نقول: نصحت له الود، أي أخلصته له، وهذا المعنى موجود في لغتنا الدارجة نقول: فلان ينصح مع الناس بمعاملاته، أي بمعنى أن تكون معاملته مع الآخرين خالصة لا شوب فيها، وليس بمعنى أن يقدم النصيحة للآخرين. والتوبة التي يطلبها الله سبحانه من الذين آمنوا لا بد أن تكون خالصة صافية لا شوب فيها ولا عودة إلى المعصية بعدها. أي تنتفي معها جهة الظلمانية والقذارة المعنوية في وجود الإنسان.. ويكون وجوده نورانياً مستحقاً للبقاء في

حضرة الحق سبحانه، ومقتضى الرحمة الإلهية أن الله لا يترك عباده المؤمنين حين صدور الذنب منهم بل يوجه لهم نداء التوبة.

الجواب الثاني: وهو مبني على مقدمة في المعرفة الإلهية حاصلها أن الله سبحانه لامتناهي من حيث الكمالات وهو المطلق اللامحدود من جميع الجهات حسب ما يقتضيه غناه المطلق ووجوب وجوده.

بناءً على هذه المقدمة فإن الإنسان عندما يصل إلى درجة معينة في الإيمان والاعتقاد بالله سبحانه وننسب هذه الدرجة إلى اللامتناهي ستكون قيمتها صفراً، لأن نسبة المتناهي إلى اللامتناهي هي الصفر، والإنسان المؤمن كلّما ترقى درجة في الإيمان والكمال فهناك درجة أعلى وأشد كمالاً منها ثم تنفتح له درجة أشد وأعلى وهكذا إلى ما لانهاية، فكلما ارتقى درجة في الإيمان يأتيه النداء بالتوبة والرجوع إلى الله سبحانه في درجة أعلى وأكمل وأعظم من درجته السابقة.. وحسب المقدمة التي ذكرناها تكون درجات القرب من الله غير متناهية ولا تقف عند حدّ معين.. فيرجع إلى الله ثم يرجع.. ثم يرجع تلبية لنداء (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله). نعم تختلف درجات التوبة والرجوع باختلاف الذنوب والمعاصي، كما يدل عليه الحديث المعروف:

(حسنات الأبرار سيئات المقربين) فنفس الفعل يكون حسنة عند الأبرار وسيئة عند المقربين ولها عقاب خاص ينسجم مع تلك المرتبة، فللأبرار توبة خاصة تنسجم مع سيئاتهم، وللمقربين توبة خاصة تنسجم مع سيئات مرتبتهم، وهذه المراتب غير متناهية، ولكل مرتبة رجوع وتوبة خاصة إلى المرتبة الأعلى منها.

استناداً لذلك سوف يبقى باب التوبة مفتوحاً ونداء التوبة شاملاً لكل مراتب الإيمان في مسيرة التكامل نحو الله سبحانه وتعالى إلى أن يصل الإنسان إلى مرتبة الفناء في الله - حسب معطيات المعرفة الإلهية- إذ بعد وصوله إلى هذه المرتبة لا يتصور شموله بنداء التوبة، لأن النداء يوجه عند وجود ذات مؤمنة لها استقلال والحال أن الإنسان في مرتبة الفناء الكلي تذوب وتفنى إنيته واستقلاله وخصوصيته فلا معنى لتوجيه النداء إليه حينئذٍ.

• إشكال التوبة من التوبة

بناءً على ما ذكرناه من أن التوبة إلى الله غير متناهية سوف يندفع ما ذكره بعض العرفاء - سواء في العرفان العملي أم النظري- وحاصل ما ذكروه أن الإنسان عندما يتقرب إلى الله سبحانه سوف يصل إلى مرتبة عالية جداً تسمى عندهم (التوبة من التوبة)، والمراد منها أن الإنسان المذنب لا بد أن يتوب ثم

يتوب ثم يتوب من ذنوبه بتوبة لا توبة بعدها، أي لا يصدر منه الذنب بعدها فتسمى عند الناس الكمل في المعرفة الإلهية التوبة من التوبة. ويعدون ذلك من أسرار حقيقة التوبة، لأن التائب داخل في الجميع، في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ فالتائب مأمور بالتوبة وحيث أنه تائب لا ذنب عنده، فيكون المراد تب من التوبة.

ومن الواضح أن قاعدة (التوبة من التوبة) غير تامة بناءً على ما ذكرناه من أن التوبة والرجوع إلى الله سبحانه غير متناهية ولا تقف عند مرتبة معينة، إذ بعد تصور عدم تناهي مراتب القرب لا يمكن أن يوجد شخص يقول توقفت عن التوبة! إذ بمجرد أن يقول ذلك سوف يتحقق التوقف عند حدّ معين وهو ينافي اللاتناهي الذي ذكرناه في المقدمة، نعم يمكن تصور التوبة من التوبة في مستوياتنا الاعتيادية التي تصدر معها المعاصي، فنقول إننا نتوب من توبة المعاصي، أي تكون توبتنا نصوحاً لا نعود بعدها إلى ارتكاب الذنب والمعصية، أما في مراتب القرب الإلهي العليا فلا يتصور ذلك لأن الإنسان السالك إلى الله في صراط الكمال كلما وصل إلى مرتبة ستكون هناك مرتبة أعلى وأكمل منها فيتوب من السابقة ويرجع إلى اللاحقة.



● التوبة أحد تجليّات التوحيد الإلهي

النقطة الثانية: إن الآية الكريمة عبّرت بـ(توبوا إلى الله) أي ارجعوا إلى الله ويظهر من هذا الحصر أن حقيقة التوبة تجلٍ من تجليات التوحيد الحقيقي، لأن الإنسان التائب يرجع في توبته إلى الله إذ لا يوجد شيء غير الله عز وجل لكي يرجع إليه. فالتوبة إلى الله توحيد في حقيقتها.

● التوبة مقدمة تكوينية للدخول في النعيم الإلهي

النقطة الثالثة: إن الآية رتبت دخول الجنة التي تجري من تحتها الأنهار على تكفير السيئات، حيث قالت: ﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾.

وهذا الترتيب ضروري من الناحيتين العقائدية والوجودية، لأن الإنسان لا يمكن أن يدخل دار الرضوان والنعيم وفي وجوده أثر للسيئة والمعصية.. إن هذا مستحيل تكويناً، ومن هنا فالتوبة تكفر السيئات وبعد تكفير السيئات ومحوها يمكن الدخول إلى الجنة المذكورة، لأن الجنة عالم الطهارة والنور ولا يمكن أن يدخلها غير الطيب، ولو تقدمنا خطوة أخرى يمكن القول: إن دخول الجنة مشروط بتكفير السيئات

والتطهير منها، فكيف بالوصول إلى الله سبحانه؟!

أي أن الجنة هي أحد مظاهر رحمة الله ورضوانه ويتطلب الدخول فيها هذا الشرط، فيكون الوصول إلى الله خالق الجنة مشروطاً بالتطهير بشكل أعمق وأشد من دخول الجنة، لأن مرتبة الوصول إلى الله عز وجل أعظم من مرتبة الوصول إلى الجنة، ولذلك يقول السيد الشهيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ في كتاب فقه الأخلاق: (أن أهل الدنيا في سكر عن الآخرة. وأهل الآخرة في سكر عن الدنيا.. وأهل الله في سكر عن الدنيا والآخرة)، والسكر هنا بمعنى عدم الالتفات أصلاً.. أي أن أهل الله إذا التفتوا إلى الآخرة سوف لا يكونون أهل الله بل يصيرون أهل الآخرة!!

وفي ختام هذا البحث أود الإشارة إلى ما ذكره ابن القيم في كتابه مدارج السالكين حول تكفير سيئات الإنسان وتطهيره من الذنوب، حيث يقول:

إن لأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا:

النهر الأول: التوبة النصوح.

النهر الثاني: نهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها.

النهر الثالث: نهر المصائب العظيمة المكفرة عن السيئات.

فإذا لم تفِ بطهرهم طهّروا في نهر الجحيم يوم القيامة، فإذا أراد الله بعبده خيراً أدخله أحد هـذه الأنهـار الثلاثـة فـورد يـوم القيامة طيباً طاهراً فلم يحتج إلى التطهير في النهر الرابع)!!

أقول: بغض النظر عن مصطلحات التوبة والتكفير ومحـو الذنوب فإن المهم أيها الإنسان أن ترجع إلى الله سالماً (إلا من أتى الله بقلب سليم).. هذا هو الذي يريده الله.. ارجـع طـاهراً طيبـاً كما أن أصلك كان كذلك..

نختم بحثنا بدعاء الإمام السجاد عليه السلام:

(اللَّهُمَّ إنْ يَكُنِ النَّدَمُ تَوْبَةً إلَيْكَ فَأَنَا أَنْدَمُ النَّادِمِينَ، وَإنْ يَكُنِ التَّرْكُ لِمَعْصِيَتِكَ إنَابَةً فَأَنَا أَوَّلُ الْمُنِيبِينَ، وَإنْ يَكُـنِ الاسْـتِغْفَارُ حِطَّةً لِلذُّنُوبِ فَإنِّي لَكَ مِـنَ الْمُـسْتَغْفِرِينَ، اللَّهُـمَّ فَكَمَـا أَمَـرْتَ بِالتَّوْبَـةِ وَضَمِنْتَ الْقَبُولَ، وَحَثَثْتَ عَلَى الدُّعَـاءِ وَوَعَدْتَ الإجَابَةَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاقْبَلْ تَوْبَتِي وَلاَ تَـرْجِعْني مَرجَعَ الغَيبَـةِ مـنْ رَحْمَتِـك، إنَّـكَ أَنْـتَ التَّوَّابُ عَلَى الْمُذْنِبِينَ، وَالرَّحِيمُ لِلْخَاطِئِينَ الْمُنِيبِينَ، أللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ كَمَا هَدَيْتَنَا بِهِ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ كَمَا اسْتَنْقَذْتَنَا بِـهِ، وَصَـلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ صَلاَةً تَشْفَعُ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَوْمَ الْفَاقَـةِ إلَيْـكَ، إنَّـكَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ وَهُوَ عَلَيْكَ يَسِيرٌ).

والحمد لله ربّ العالمين







الفهرس

المبحث الأول



المبحث الثاني

المبحث الثالث

المبحث الرابع



المبحث الثامن

المبحث التاسع

المبحث العاشر